البخاري

بين العقل والنقل



محمد خمد عبد الله الصوّاني

العبيكان
Obeikan

البخاري
بين
العقل والنقل

محمد حمد عبد الله الصوياني

العبيكان
Obeikan

ⓒ شركة العبيكان للتعليم، ١٤٤٣هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الصوياني؛ محمد حمد عبدالله

البخاري بين النقل والعقل./ محمد حمد عبدالله الصوياني، ط١؛

-الرياض، ١٤٤٣هـ

٨٨ص ؛ ١٤ × ٢١سم

ردمك: ٤-٤٦٣-٥٠٩-٦٠٣-٩٧٨

١- البخاري، محمد بن إسماعيل، ت ٢٥٦هـ ٢- الحديث الصحيح

أ. العنوان

ديوي ١, ٢٣٥ ١٤٤٣/١١٧٢٨

حقوق الطباعة محفوظة للناشر

الطبعة الأولى

١٤٤٤هـ/٢٠٢٢م

نشر وتوزيع العبيكان Obeikan

المملكة العربية السعودية - الرياض

طريق الملك فهد - مقابل برج المملكة

هاتف: ٤٨٠٨٦٥٤ ١١ ٩٦٦+، فاكس: ٤٨٠٨٠٩٥ ١١ ٩٦٦+

ص.ب: ٦٧٦٢٢ الرياض ١١٥١٧



جميع الحقوق محفوظة. ولا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو نقله في أي شكل أو واسطة، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك التصوير بالنسخ (فوتوكوبي)، أو التسجيل، أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي من الناشر.

The story of Obeikan's success began in 1982 with a single commercial print shop, from our print shop roots, we've grown into a multi-national leader in packaging and education. We're one of Saudi Arabia's hundred largest companies, with more than 3,000 employees and offices in 16 countries. Our business lines are diverse, but a single principle unites them all: the belief that constant innovation and the pursuit of excellence is non-negotiable.

Technology is accelerating the pace at which the world is changing, and we're harnessing its power to become constantly better—more productive, more precise, more responsive—in everything we do. Now, digital transformation of our operations is the common imperative across all of our business lines, nearly 40 years later, Obeikan is still writing new chapters in its success story, establishing an innovation hub. We're eager to share digital solutions that have added significant value to our manufacturing operations, and that can help our customers, our partners, and other businesses thrive as well, and because we believe in the importance of using technology in medical fields, we have founded Obeikan Health in order to offer innovative and smart solutions to healthcare providers through Saned Health platform, thus expanding the reach of their services to patients using Saned Health app.

Our Vision To be the trusted guide in digital transformation, and the leading provider of fully integrated packaging, education, healthcare innovation and digital solutions in the Middle East and North Africa.

Our Mission To enrich those we serve. Across all our businesses and joint-ventures, both at home and abroad, the company is cherished by its customers, partners and most importantly, by those who choose to work here.

Obeikan is an investment group that invests in the future of Saudi Arabia, its people, its businesses and the communities it serves. It does not discriminate between its stakeholders, choosing to treat each player equally and as one family.

بدأت قصة نجاح العبيكان في عام 1982 من خلال مطبعة تجارية واحدة، نمت العبيكان من مجرد مطبعة واحدة لتصبح شركة رائدة متعددة الجنسيات في التعبئة والتغليف والتعليم. نحن من أكبر 100 شركة في المملكة العربية السعودية، ويعمل لدينا أكثر من 3000 موظف في 16 دولة. نمتلك خطوط أعمال متنوعة، لكن يجمعها كلها مبدأ واحد وهو: الإيمان الراسخ بأن الابتكار المستمر والسعي لتحقيق التميز هو هدف لا يتزعزع ولا نحيد عنه.

تسرع التكنولوجيا وتيرة تغيير العالم، ونحن نسعى بقوة للاستفادة منها بشكل مستمر لتحسين الإنتاجية والوصول لأعلى مستويات الدقة وتعزيز الاستجابة في كل ما نقوم به. لقد أصبح التحول الرقمي الآن في عملياتنا عنصرا هاما لا غنى عنه في جميع قطاعات أعمالنا، وبعد ما يقرب من 40 عاما، لا تزال العبيكان تكتب فصولًا جديدة في قصة نجاحها، من خلال كونها مركزًا للابتكار. نحن متحمسون لتقديم الحلول الرقمية التي أضافت قيمة كبيرة لعمليات التصنيع لدينا، والتي يمكن أن تساعد عملائنا، وشركائنا، والشركات الأخرى لتزدهر كذلك.

ولأننا نؤمن بأهمية استخدام التكنولوجيا في مجالات الصحة قمنا بتأسيس شركة العبيكان للصحة والتي تقدم الحلول الذكية والمبتكرة لمقدمي الرعاية الصحية عبر منصة ساند للصحة وتعمل على إيصال خدماتهم للمرضى من خلال تطبيق ساند.

رؤيتنا أن نكون المرجعية الموثوق بها في التحول الرقمي، والمقدم الرائد للحلول المتكاملة في مجال التعبئة والتغليف والتعليم والرعاية الصحية والابتكار والحلول الرقمية في منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا.

رسالتنا إثراء هؤلاء الذين نعمل على خدمتهم، في جميع أعمالنا، وشراكاتنا في الداخل وفي الخارج، فالعبيكان تعتز بجميع العملاء والشركاء، وبالأخص أولئك الذين يختارون العمل في المؤسسة.

العبيكان هي مجموعة استثمارية تستثمر في مستقبل المملكة العربية السعودية وشعبها والشركات والمجتمعات التي تخدمها. العبيكان لا تميز بين أي من الأطراف وتعاملهم جميعًا على قدم المساواة وكعائلة واحدة.

saned Health

العبيكان Obeikan HEALTH

العبيكان للاستثمار Obeikan Investment Group

ولأن رسالة العلم والمعرفة لا تكتمل إلا بنشرها، ومن هذا المنطلق قامت مجموعة العبيكان للاستثمار الشركة الرائدة في الطباعة والتعليم والصحة، والتي تعتبر من أكبر 100 شركة في المملكة العربية السعودية، بتأسيس العبيكان للنشر والتي أضحت في مصافِ دور النشر الكبيرة في المملكة العربية السعودية، والوطن العربي.

انطلقت العبيكان للنشر عام 1993م حاملةً لواء النهوض بالمعرفة ودعم التعليم وذلك من منطلق مسؤوليتها الاجتماعية، أما اليوم فقد بلغ حجم إصدارات شركة العبيكان للنشر أكثر من 2000 عنوان لكتب ثقافية ومنهجية بكافة تخصصاتها.

إن التزامنا تجاه تقديم المعرفة وتطوير سبل الحصول عليها جعلنا نسعى لشراكاتٍ متينة مع شركاتٍ كبرى ومؤسساتٍ تعليمية وثقافية في المملكة والعالم العربي، و من أهم المرجعيات التي نفخر بالشراكة معها:

- وزارة الثقافة
- وزارة التعليم العالي
- مؤسسة الملك عبد العزيز لرعاية الموهوبين والمتفوقين (موهبة)
- جامعة الملك فهد للبترول والمعادن
- مدينة الملك عبدالعزيز للعلوم والتقنية
- هيئة السوق المالية
- مؤسسة الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم
- رابطة الأدب الإسلامي العالمية
- ماكدونالدز السعودية
- مجموعة زاد للنشر

The message of science and knowledge is not complete without its publication, and from this point of view, Obeikan Investment Group, the leading company in printing, education and health, which is one of the largest 100 companies in the Kingdom of Saudi Arabia, established Obeikan Publishing, which has become one of the major publishing houses in the Kingdom of Saudi Arabia and the Arab world.

Obeikan Publishing was launched in 1993, bearing the banner of advancing knowledge and supporting education, out of its social responsibility. Today, Obeikan Publishing has issued more than 2,500 titles of cultural and methodological books in all its specializations.

Our commitment to providing knowledge and developing ways to obtain it has made us seek solid partnerships with major companies and educational and cultural institutions in the Kingdom and the Arab world. Among the most important references that we are proud to partner with are:

- Ministry of Culture
- The Ministry of Higher Education
- King Abdulaziz Foundation for the Gifted and Talented (Mawhiba)
- King Fahd University of Petroleum and Minerals
- King Abdulaziz City for Science and Technology
- Financial Market Authority
- Sheikh Mohammed bin Rashid Al Maktoum Foundation
- The World Islamic Literature Association
- McDonald›s Saudi Arabia
- Zad Publishing Group

تواصل معنا
CONTACT US



﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ [البقرة: ٧٩].

وقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «**من كذب علي متعمِّدًا فليتبوَّأ مقعده من النار**». رواه الشيخان.

المحتويات

ما علاقة البخاري بالعقل ٧
الحديث النبوي بين النقل والعقل ١٣
الشروط النقلية ١٤
المنهج العقلي في نقد أحاديث النبي ﷺ ١٦
العيوب التي قد تؤثر في السند المتصل؟ ١٧
التدليس وروعة النقد الإسلامي ٢٠
تدليس التسوية ٢٢
(تدليس الشيوخ) ٢٤
(تدليس القطع) ٢٦
بعض علل سند الحديث الخفية ٢٨
ما هو المتن؟ وما هي علله؟ ٣٢
من هم نقاد الحديث؟ ٣٥
النقلة الثقافية المذهلة ٣٨
أقسام الحديث النبوي ٣٩
المنهج البديل عند الشيعة ٤٦

درجات أحاديث الشيعة ٤٨
ما معنى طرق الحديث؟ ٤٩
خلق السماوات والأرض ٥٣
الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ والنبي يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ ٥٥
الله طيب يأمر بأكل الطعام الطيب ٦٠
الله عَزَّوَجَلَّ يأمر بأكل البراز ٦٠
المرأة تنجس كل شيء ٦١
تحول الرجل إلى امرأة نجسة ٦٥
أركون فضيحة المصطلحات المدوية ٦٧
تعريف أركون للحديث ٧٣
الترجمة عند منتقدي الحديث مزاجية ٧٩
الكنيسة ترد على الحداثيين العرب ٨٢

ما علاقة البخاري بالعقل

مـا علاقـة البخاري بالعقـل؟... البخـاري مجرد ناقـل... رجل نقـل وحسـب... إنـه ليـس رجل نقـد... إنـه كاتب يتتبـع القصص والأخبـار النبويـة مـن أفـواه الرجال هنـا وهناك، ثـم يدونهـا بعيدًا عـن العقـل، وبعيدًا عـن العلم؟

هـذا الاتهـام يؤكد أن الذيـن يقولونـه، لا يعون ما الـذي يخرج من رؤوسـهم؟

إنهـا كلمات إنشـائية تدل على أن قائلها لا يعـرف من البخاري، ومـا صحيح البخـاري، ولا ما الـذي أبدعه، فلـو كان البخاري كما يقولون لسقط منذ قرون، وسقط معه (صحيح البخاري)، كما سقط الكتـاب المقدس على يد النقاد الحقيقييـن المبدعين في أوروبا.

ولأن البخاري لم يسقط، وإنما السقوط والفشل لازم، ولا يزال يلازم منتقديه، فأين الخلل إذًا؟ وأين الإشكالية؟

هنـاك عبارة تنسـب إلى أينشـتاين تقـول: إن الغباء هـو أن تفعل الشـيء نفسـه أكثر من مرة، بالأسـلوب نفسـه، وبالخطوات نفسها، ثم تنتظر نتيجـة مختلفة.

منتقـدو البخاري يكررون الشـيء نفسـه ليس مـرة، ولا مرتين، بـل مئات المـرات في نقدهم له، وبالأسـلوب نفسـه، وبالخطوات نفسـها، ثـم يحصلـون علـى النتيجـة نفسـها، وهـي: (الفشـل)، والعجيـب هـو أنهـم لا يملّون مـن الحصول علـى النتيجة نفسـها، ولا يملّـون مـن الحصول على الفشـل نفسـه.

وأمـا المخجل، فهـو أنهم يفعلون ذلك بالمقـالات، وبالنكات، وإطـلاق المصطلحـات السـاخرة كالظلامية والرجعيـة.. بهـذا الأسـلوب الإنشـائي يريد هؤلاء إسـقاط البخـاري، وقبلـه حاولوا إسـقاط القـرآن، فأصبحوا أيقونة للفشـل.

واللافـت هنـا هـو أنهـم يتحاشـون منهج النقـد عنـد المبدعين الحقيقييـن في أوروبا والغرب، فأولئـك النقاد الغربيون المبدعون، لم يضطـروا إلـى هـذه الأكـداس مـن المصطلحـات الإنشـائية والاتهامات، والسـخرية والنـكات لكي يسـقطوا كتابهم المقدس؛ ليس لأن سـلطة الكنيسـة كانت قوية، ومحاكـم التفتيش التي كانت تديرهـا كانـت مرعبـة، ولكـن لأن النقـاد المبدعيـن لجـؤوا إلـى سـلاح لا يمكن هزيمتـه، وحجة لا يمكن دحضهـا، وقوة لا يمكن لمحاكـم التفتيـش ومقالصهـا منازلتها.

لجؤوا إلى سلاح لا يقطع الرؤوس، ولا يسيل الدماء، ولا يستطيع الدجالون والجهلة، بل ولا الجيوش المدججة هزيمته.. لجؤوا إلى سلاح (العلم التجريبي).. العلم الذي صنع السيارات والطائرات، وأجرى للمرضى أدق العمليات وأخطرها، وقرب المسافات، وجعل العالم قرية واحدة.

قرأ النقاد الأوروبيون أول أسطر الإنجيل التي تقول: إن الشيطان أخذ يسوع (عيسى بن مريم) ليختبره في الأردن، ثم صعد به أعلى جبل هناك، ولما أصبحا على قمته انكشفت لهما كل دول العالم، فقال الشيطان: انظر ما حولك، هذه كل ممالك الأرض، اسجد لي، واخضع لي، وأجعلك تحكمها، وتملكها.

قرأ الناقد الأوروبي تلك القصة، فعرف أنها ليست من عند الله، بل هي دخيلة على كتابه (المقدس)؛ لأن العلم والواقع يقول: إنه لا يوجد جبل على أرض الأردن نستطيع من على قمته رؤية ممالك الأرض، بل لا يوجد جبل هناك يطل على كل أرض الأردن نفسها.

العلم التجريبي يقول كذلك: إنه من المستحيل أن يرى أحد كل بلاد العالم من أي قمة، ولو كانت أعلى قمة في العالم (إفرست)؛ لأن الأرض كروية، وليست كما يشير كتابهم المقدس بأنها مسطحة، هذا ما كان يجري في أوروبا.

وأما المذهل، فهو ما جرى قبل ذلك بقرون في أوروبا نفسها، وفي إسبانيا بالتحديد، فهناك في الأندلس، حيث عاش

فقيه مسلم، ومحدث حافظ، وتلميذ من تلاميذ منهج البخاري يدعى (ابن حزم).

هذا الإمام العظيم قام بإثبات أن الأرض كروية بأدلة من القرآن والحديث النبوي منذ قرابة ألف عام، بل وضع عنوانًا عريضًا بارزًا، أثبت فيه ضرورة أن تكون الأرض كروية.

العنوان هو: (مطلب بَيَان كروية الأَرْض)، وفيه يثبت ابن حزم كروية الأرض في أربع صفحات من كتابه: (الفصل في الملل والأهواء والنحل)[1].

هذا مثال من مئات الأمثلة على نجاح الناقد العلمي الحقيقي والمبدع في إسقاط المقدس، إن كان المقدس محرّفًا ومزيفًا.. يسقطه بالعلم.. بالتجربة.. لا بالمقالات الإنشائية، والنكات والمسرحيات التافهة.

والمحير هنا هو: أن منتقدي البخاري.. هم أقل الناس وعيًا بطريقة نقله وآلية نقده للأحاديث النبوية.. هم يظنون أن البخاري مجرد (حكواتي) في مقهى.. يردد قصصًا سمعها عن الماضين، أو أنه كاتب قصة كنجيب محفوظ أو توفيق الحكيم.. يبدع قصصًا من نسج خياله، أو كأبي الفرج الأصفهاني في كتابه الأغاني، أو كمؤلف كتاب (نهج البلاغة) الذي لا يُعرف حتى

(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل (٢/ ٧٨).

الآن من هو مؤلفه.. هؤلاء يجهلون العبقرية العقلية والعلمية، والجهد الذهني والبدني الذي بذله البخاري ومسلم وأمثالهما في البحث عن الأحاديث، وجمعها وتوثيقها، ثم القيام بآلية عبقرية لفرز الصحيح منها، واستبعاد الضعيف..

هؤلاء يجهلون أن علماء آخرين لا يقلون حفظًا وعلمًا عن البخاري ومسلم.. حاولوا تكرار تجربة البخاري ومسلم، لكنهم نجحوا بنسب أقل.. منهم ابن خزيمة في كتابه (صحيح ابن خزيمة) ومنهم ابن حبان في (صحيح ابن حبان) وغيرهما.

هؤلاء العلماء المحدثون.. بحثوا ونقبوا، وتعبوا وسهروا، وأتعبوا عقولهم وأبدانهم ومطاياهم، وعانوا وعانوا من أجل توثيق أحاديث نبيهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

عانوا الغربة بحثًا عن المصادر الموثوقة للحديث.. منهم من جاع، ومنهم من لممتلكاته باع، ومنهم من أفلس في طلب الحديث.. ومنهم من سافر من الحجاز إلى العراق، أو من اليمن إلى الشام من أجل أن يوثق حديثًا واحدًا سمعه، فسأل عن مصدره، فقيل له: هو عند العالم فلان في البلاد الفلانية، فشد الرحال إليه من أجل توثيق مصدر حديث واحد، أو مجموعة من الأحاديث النبوية..

هؤلاء العلماء الأفذاذ وجهودهم بالنسبة إلى منتقدي البخاري مجرد حكواتية!!!

لـذا، فـإن هـذه الورقـات محاولـة لمحـو أميـة هـؤلاء، فيمـا يتعلـق بالوعـي بالأحاديـث النبوية، وآليـة علماء الحديـث الفريدة والعبقريـة، التـي لا تتوافـر لـدى أي أمـة مـن أمـم الأرض قاطبة.. هـذه الورقـات دعـوة لتعريـف هـؤلاء برحلـة صحيـح البخـاري وأمثالـه إلينـا.. كتبتهـا بأسـلوب سـهل ومبسـط ومختصـر.. لعـل منتقديـه يخففـون مـن غرورهـم وتعاليهم عنـد تناولهـم للحديث والسنة.

محمد الصوياني

الحديث النبوي بين النقل والعقل

الحديث النبوي هو كلام النبي محمد ﷺ، أو فعله، أو موافقته على قول أو أمر يحدث أمامه، ولأننا لم نرَ النبي ﷺ، ولم ندرك زمنه، فلا يمكننا قبول أي حديث ينسب إليه هكذا.. لا يمكننا الوثوق بما ينقل عنه إلا عن طريق واسطة قوية وموثوقة.. واسطة تلقت تلك الأحاديث كوثائق نادرة، وروتها كوثائق مهمة للغاية. هذا أمر توصل إليه المسلمون من القرآن الكريم، فقد حذر القرآن العظيم من التهاون في نقل أحاديث النبي محمد ﷺ تحذيرًا مخيفًا، وشدد في مسألة النقل عنه ﷺ، وذلك حين جعل التزوير في النقل جريمة من أكبر الجرائم والذنوب.

القرآن حذر من ارتكاب ذلك الجرم الذي ارتكبه بعض أهل الكتاب، وهو التزوير، حين حشروا تراثهم الشعبي وآراءهم ضمن كتابهم المقدس.. توعد الجبار سبحانه من يفعل ذلك،

فقال: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ [البقرة: ٧٩].

وبناءً على ذلك، فإن علماء الحديث ونقاده قد توصلوا إلى أنه لكي تكون الواسطة التي تنقل لنا الأحاديث النبوية مقبولة، فلا بد من أن تتوافر فيها شروط نقلية وعقلية مشددة جدًّا وقاسية؛ لذا دعونا نبدأ بـ:

الشروط النقلية

- **أولًا**: يجب التأكد من أن راوي الحديث عن النبي ﷺ هو من شهود العيان، وشهود العيان هم أصحاب النبي رضي الله عنهم، فأي حديث لا يوجد فيه صحابي يعدّونه حديثًا ضعيفًا؛ لأن أهم حلقة في الحديث قد سقطت، وإذا سقطت أصبح هذا النوع من الأحاديث منقطعًا؛ أي منقطع الصلة بالنبي ﷺ، ويسمون هذا النوع المنقطع (الحديث المرسل).
- **ثانيًا**: لا بد من أن نتأكد أن الذي نقل الحديث عن الصحابة ينتمي إلى الجيل الثاني، وهو جيل التابعين، والتابعون هم مسلمون ومسلمات رأوا الصحابة، وسمعوا منهم، وتتلمذوا على أيديهم، فهم الواسطة الثانية، فإن كان الصحابي والتابعي غير موجودين في سلسلة الناقلين للحديث أصبح الحديث شديد الضعف، ويسمى (المعضل).

- **ثالثًا**: أن نتأكد من أن الذين نقلوا الحديث عن التابعين هم من الجيل الثالث، وهم الذين رأوا التابعين، وسمعوا منهم، ودرسوا على أيديهم، وهم تابعو التابعين.
- **رابعًا**: أن نتأكد من أن الذين نقلوا الحديث عن تابع التابعين هم من الجيل الرابع، وهكذا تستمر السلسة إلى أن تنتهي إلى العالم الذي جمع الأحاديث في كتاب مثل البخاري أو أحمد بن حنبل أو الترمذي أو غيرهم رحمهم الله.

وهذه الحلقات المتصلة من الرواة تسمى سلسلة الرواة، وتسمى أيضًا (سند الحديث)، وسلسلة الرواة هذه.. ميزة لا توجد عند غير المسلمين على الإطلاق، لا عند اليهود، ولا عند النصارى في (الكتاب المقدس)، ولا عند غيرهم..

هذه السلسلة هي الشرط النقلي للأحاديث عن رواة الحديث وأبرزهم البخاري.

وهنا يأتي دور العقل ليطرح السؤال الأكبر، وهو:

هل يكفي أن يكون للحديث سند وسلسلة رواة حتى يكون حديثًا صحيحًا؟ الإجابة المذهلة عن هذا السؤال هي نشأة المنهج العقلي في نقد الحديث ونقله.

المنهج العقلي في نقد أحاديث النبي ﷺ

العقل يحاكم أسانيد الحديث

العقل يحتج.. يتساءل.. يقول: هل يكفي أن يكون للحديث سند وسلسلة رواة حتى يكون صحيحًا؟ والإجابة هي: لا...

فما سبق.. يعبر عن آلية النقل.. أي الجزء النقلي فقط، وهو شيء قد يعرفه بعض **منتقدي** البخاري، وأما الذي يجهلونه فكثير.. كثير جدًّا، وأول ما يجهلونه هو:

- أن علماء الحديث ونقاده كالبخاري وغيره يقولون: ما سبق هو نقل فقط، والنقل لا يكفي.. لا يكفي أن يكون للحديث سند وسلسلة رواة، ولو كان ذلك يكفي، لما أصبح للمسلمين إلا هذه الميزة النقلية على غيرهم في توثيق تراثهم الديني؛ بل إن الأمم السابقة لا تهتم بنقل كتبها المقدسة حتى بالأسانيد، ولا تلقي لها بالًا.

إذًا، فأول علاقة للعقل بالسنة والأحاديث.. هي نقد الأسانيد نفسها، فلا يمكن الحكم بصحة الحديث لمجرد أن له سلسلة متصلة من الرواة، بل لا بد من كشف شيء بالغ التعقيد، وهو درجة اتصال حلقاتها ببعضها..

أجل، فمجرد اتصال حلقات السلسلة وحده لا يكفي؛ لأن السند أو السلسلة قد تكون متصلة، ولكن قد يكون فيها عيب يؤثر في ذلك الاتصال، فما:

العيوب التي قد تؤثر في السند المتصل؟

العيوب التي قد توجد على الرغم من اتصال السند كثيرة، منها:

أن يكون أحد الرواة مجهولًا؛ لذا فلا بد من أن يكون جميع الرواة معروفين، فلو كانوا مجهولين كرواة (الكتاب المقدس)، أو مجهولين كرواة (كتب الشيعة)، فلا قيمة لها؛ لأنه لا قيمة لرواية المجهول، حيث إن هناك احتمالًا بأن يكون هذا المجهول كذابًا، وهذه ميزة نقدية.. لا توجد عند غير المسلمين، بل إن كل كتب غير المسلمين المقدسة يرويها مجاهيل عن مجاهيل.

وهنا لا يكتفي العقل الإسلامي النقدي الفذ بمعرفة الرواة.. إنه يطرح سؤالًا أكثر تقدمًا وهو: هل يكفي أن يكون جميع الرواة معروفين لكي يكون الحديث صحيحًا؟

- البخاري وعلماء الحديث ونقاده يقولون: لا.. لا يكفي أن يكون كل رواة الحديث وسلسلة الرواة معروفين، بل لا بد من أن يكون جميع الرواة ممن يتصفون بصفة الصدق؛ أي لا يكذبون، ولا يستحلّون الكذب، ولا يبررونه أبدًا، ففي الإسلام: لا يوجد كذب أبيض، وكذب أسود في نقل أحاديث النبي محمد ﷺ، ولا يوجد كذب من أجل نشر الدين، وهي ناحية نقدية يتفرد بها المسلمون، ولا توجد عند غيرهم من أصحاب الديانات، بل إن هناك مذاهب وأديانًا تقوم على الكذب للدين، والتقية في النقل.

لم تنته أسئلة العقل الإسلامي الموجه إلى نقد حديث النبي ﷺ، ومنها سؤال يقول: هل يكفي أن يكون السند متصلًا، ورواته معروفين بالصدق لكي يكون الحديث صحيحًا؟

- البخاري وعلماء الحديث ونقاده يقولون: لا... لا يكفي أن يكون السند متصلًا ورواته ممن يتصفون بصفة الصدق، فالصدق ضروري، وأهم صفة في الراوي، ولكنه ليس كل شيء، فقد يكون الراوي من أصدق الناس وأفضلهم وأكثرهم عبادة، بل ومن أعلمهم، ولا يستحل الكذب، ولا يبرره، ولكن روايته لا تساوي شيئًا؛ لأن لديه ضعفًا بيولوجيًّا من ناحية الذاكرة والحفظ والضبط، ولذا كان الناقد الكبير (يحيى بن معين) يتحدث عن هذا النوع من الرواة مثنيًا عليهم من ناحية الدين والصلاح والاستقامة والعبادة، ولكن ذلك لا يعني أنهم فوق النقد، فيقول: «إنا لنطعن على أقوام لعلهم قد حطوا رحالهم في الجنة»[1].

إذًا، فلا بد من أن يكون الراوي حافظًا لروايته، فالصادق الأمين الذي يمتلك ذاكرة ضعيفة.. لا قيمة لحديثه حتى لو كان يمضي الليل والنهار بالصلاة والصيام.

ترى هل اكتفى نقاد الحديث بما مضى من ضوابط وشروط عقلية؟ ألا يكفي أن يكون سند الحديث متصلًا ورواته ثقات وحفاظًا؟

---

(١) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي (٢/ ٢٠١).

- البخـــاري ونقاد الحديـــث يقولون: لا.. لا يكفـــي أن يكون الراوي صادقًا وحافظًا، بل لا بد من التأكد من أنه لم يطرأ على حفظه أي تغير يؤثر في ضبـــط روايته، مثل أن يصاب بضعف الذاكرة مع مـــرور الزمن، أو بالخرف أو (الزهايمر) مثلًا، فإن كان قـــد أصيب بشيء منها، فيحكم على حديثه كله بالضعف، إلا في حالة واحـــدة.. حالة تعبر عن عبقرية نقدية إســـلامية لا تتوافر في أي أمـــة من الأمم، وهي: أن نتأكد من أن الراوي عن هذا العالم الذي تغيرت ذاكرته.. قد سمع منه هذا الحديث قبل إصابته بالخرف، وتلقى عنه قبل تغير ذاكرته وحفظه، وقد رصد البخاري ونقاد الحديث علماء حفاظًا وأئمة أجلاء عظماء أصيبـــوا بتغير الحفظ مع تقدم ســـنهم، ولكنهم قاموا بتحديد تلاميذهم الذين ســـمعوا منهم قبل ذلـــك، وقبلوا منهم، ولم يقبلوا روايات الذين ســـمعوا منهم بعد التغـــير، بل لم يقبلوا رواية من أخذ عنهـــم قبل التغير وبعـــده، إلا إن حدد تاريخ ســـماعه منهم. كما أنه يوجد علماء تغير حفظهم، لكن لا يمكن التفريق بين تلاميذهم الذين سمعوا منهم قبل، ممن سمع منهم بعد، وهنا قرر النقاد أن رواياتهم كلها مرفوضة.

إنها ميزة نقدية لم يصل إلى مستواها أحد من أصحاب الكتب المقدســة أو حتى الكتب التاريخية على الإطلاق، والعقل هنا يقف مندهشًا من هذه الصرامة النقدية العجيبة.

يواصـل البخـاري وبقيـة العباقـرة اشـتراطاتهم القاسـية،

وإدهاشهم للعالم، فيقولون: إنه بعد كل هذا التشدد لا يصبح الحديث صحيحًا؟

أجل.. لا.. لا يكفي لقبول الحديث أن يكون كل راوٍ صادقًا وحافظًا، ولم يصب بالخرف، بل يجب أن تكون سلسلة الرواة خالية من أمر بالغ التعقيد والدقة، وهو التدليس، وما أدراك ما لتدليس؟! أما اكتشاف التدليس فعبقرية أخرى تميز بها نقاد الحديث.

التدليس وروعة النقد الإسلامي

التدليس موضوع عقلي شائق ودقيق، ورصده عبقرية نقدية مذهلة، وإلا فمن هي الأمة، ومن هو المؤرخ الذي يرفض أخبارًا وقصصًا وأحداثًا لمجرد أن راويها قال في بدايتها الكلمات الآتية: (قال فلان) أو (عن فلان) أو (روي أن فلانًا)؟

إن معظم التراث العالمي.. إن لم يكن كله على هذه الشاكلة، ولا يوجد فرز نقدي لتلك العبارات ومدلولاتها إلا عند البخاري وزملائه من نقاد الحديث.. فرز عبقري أوصلهم إلى رصد ظاهرة (التدليس والمدلسين). فمن هو المدلس؟

المدلس هو: الراوي الذي يروي عن أستاذه أو شيخه بأسلوب خادع، موهمًا الناس أنه سمع هذا الحديث عن شيخه أو أستاذه، بينما هو في الواقع لم يسمعه.

المدهش هنا هو: أن النقاد اكتشفوا أن التدليس ليس له علاقة بالكذب، فالمدلسون لا يكذبون، ولكنهم يستخدمون كلمات مطاطة تحتمل الوجهين مثل: (قال فلان)، أو: (عن فلان) أو: (ذكر فلان)، فهذه كلمات لا تفيد الجزم بالسماع، وهي أيضًا لا تنفي السماع أيضًا، فما الموقف النقدي الرائع منها؟

- **أولًا**: لا يقبل النقاد من الراوي المدلس أي حديث يبدأ بكلمات مثل (عن فلان، قال فلان، ذكر فلان... ومثيلاتها) حتى إن كان حافظًا وثقة؛ لأنه ربما قام بعملية إخفاء لوجود شيخه الذي سمع منه، وهو قد يفعل ذلك لأن الناس قد لا يثقون في شيخه، بينما هو يثق فيه.

ولتقريب مفهوم التدليس أضرب هذا المثال:

راوٍ ثقة مدلس اسمه (أ) يروى حديثًا عن شخص ضعيف الحفظ اسمه (ب).

و(ب) هذا يروي هذا الحديث عن شخص ثقة اسمه (ج).

المفترض أن يكون السند هكذا: يقول (أ): حدثني (ب)، أن (ج) حدثه... إلخ.

لكن (أ) مدلس، ولذلك يلجأ إلى حيلة التدليس بوصفه حيلة لإخفاء اسم (ب)، حيث يقوم بصنع جسر فوق (ب) أي يلغيه، وهذا الجسر أو الحيلة هي كلمات مطاطة مثل: أن يقول: (عن ج)، أو (قال ج)، أو (ذكر ج) دون ذكر (ب) على الإطلاق.

وهـو هنـا لم يكذب؛ لأن الحديـث هو عـن (ج) حقًّا، ولكنه أسقط الواسطة.

هنـا.. يرفض النقاد حديث المدلس وروايته، إلا إن اسـتخدم ألفاظًـا صريحـة وواضحـة لا تقبـل الاحتمـال، ولا تحتمـل التدليـس.. كلمـات صريحـة تؤكـد أنـه سـمع الحديـث من شـيخه، مثل كلمـات: سـمعت، أو: حدثنـي، أو أخبرني.

أمـا إن قـال المدلـس: قال فـلان، أو ذكـر فـلان، أو روى فلان أو عـن فـلان... فلا يقبـل حديثه.

إنهـا ميـزة توثيقية دقيقة.. يسـتحيل أن نجدها فـي نقل أصحاب الديانات الأخرى لكتبهم المقدسـة، بل لا تجدها لدى المؤرخين.

وبعـد: هـل هـذا المسـتوى العظيم في نقـد الحديـث النبوي .. هـو أقصى ما توصلـت إليـه العقلية النقدية الإسـلامية فـي تعاملها مع السـنة النبوية؟

الإجابـة هـي: لا، فعبقريتهـم النقديـة المذهلـة.. قادتهـم إلـى اكتشـاف أنـواع خفيـة ودقيقـة أخـرى مـن التدليس لا تخطـر على البـال مثـل التدليـس الآتي:

تدليس التسوية

اكتشف عباقرة النقد الحديثي، أن هناك رواة يمارسون تدليسًا أشد غموضًا وتعقيدًا من التدليس السابق.. يسمى (تدليس التسوية)، وهو

أن يحصل المدلس على حديث بسند متصل إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم يقوم بفحص سلسلة رواته، فيجد أنها خليط من الرواة الثقات والضعفاء، لكنه يرى أن هذا الحديث جميل، ويريد تسويقه.. ربما لأنه يرى أنه صحيح، فماذا يفعل؟

يقوم هذا المدلس بحذف كل أسماء الرواة الضعفاء من السلسلة، ويبقي على الرواة الثقات فيها، ثم يضع كلمة (عن) أو كلمة (قال) مكان كل راوٍ ضعيف قام بحذفه.

مثال ذلك:

مدلس يروي فيقول: حدثني (أ) قال سمعت (ب) قال سمعت (ج) قال سمعت (د) حدثني (هـ) حدثه الصحابي فلان عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وبعد أن تأمل السند وجد أن الراويين (ب) و(هـ) ضعيفان.

هنا قرر أن يمارس تدليس التسوية وهو.. حذف (ب) و(هـ)، ثم يعيد صياغة السند ليجعله كالآتي:

حدثني (أ) عن (ج) قال سمعت (د) عن الصحابي فلان عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

المدهش هنا هو أن الذين يقومون بهذا التدليس هم من طبقة العلماء، وهم قلة معروفة لدى نقاد الحديث.. تم رصدها وكشف تدليسها، وقد قدم النقاد قوائم بأسمائهم في ظاهرة نقدية مبهرة.

وأما الأكثر إبهارًا، فهو حكم النقاد على الأسانيد التي يروونها، فقد قرروا عدم قبول رواية المدلس تدليس تسوية إلا إن كان هناك تصريح من كل راوٍ بالسماع من أستاذه في كل تلك السلسلة من أولها إلى آخرها.. تصريح لا يحتمل التدليس؛ أي إن السند من أوله إلى آخره.. لا وجود فيه لكلمات مثل (عن) أو (قال) أو (ذكر فلان)، بل يجب أن يحتوي على كلمات صريحة وواضحة مثل: (حدثني) أو (سمعت)، أو (أخبرني) بين كل راوٍ وآخر...

هذا الرصد العلمي العقلي الدقيق لا تعرفه أمة من الأمم، فالأمم الأخرى تمارس التعامي عن صحة تراثها الديني.. إنها، تعدّ نصوصها المقدسة أمرًا مسلمًا لا جدال فيه.. هكذا.. تعصبًا.. دون فحص، بل إنها ترحب بأي أكاذيب وتلفيقات بداعي الإثراء.

وبعد... هل توقفت عقول نقاد الحديث النبوي عند هذا المستوى المذهل؟

أبدًا... فقد اكتشف عباقرة الحديث تدليسًا خطيرًا ودقيقًا وخفيًّا جدًّا، واكتشافه يدل على مدى التماهي بين العقل والنقل في توثيق الحديث النبوي، وهذا التدليس هو ما يسمى (تدليس الشيوخ).

(تدليس الشيوخ)

قد يُعجب الراوي المدلس حديثٌ ما منسوب للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولكنه لا يثق في رواته؛ لذا يبدأ هذا المدلس عملية كرّ وفرّ مع

النقاد، ومن ذلك أنه يبتكر حيلًا، ويشيد المزيد من الجسور لتمرير ذلك الحديث، ومن تلك الجسور البالغة الدهاء (تدليس الشيوخ)، وهو أن يقوم، حين يُحدّث تلاميذه وطلبته، بتسمية شيخه باسم آخر.. دون أن يكذب، فعلى سبيل المثال: يكون المدلس قد سمع الحديث من شيخ ضعيف اسمه خالد بن أحمد.

وهنا يقوم بعملية تدليس ذكية، فيقول: حدثني عبدالله بن أحمد، فيظن السامع أنه العالم والثقة المشهور عبدالله بن أحمد بن حنبل، فهو أشهر محدث يحمل هذا الاسم، واللافت هنا هو: أن المدلس لم يكذب، فخالد هذا هو حقًّا عبد من عباد الله.

وهناك أيضًا طريقة أخرى لتدليس الشيوخ اكتشفها النقاد، وهي أن يطلق على شيخه الضعيف كنية لا يشتهر بها، أو أن ينسبه إلى جده مباشرة، أو ينسبه إلى بلاده.

مثلًا: يحدث المدلس عن رجل ضعيف من صنعاء اسمه صالح، ولكنه لو ذكر اسمه الصريح لم يقبله أحد؛ لذا يقوم بتدليس اسم شيخه، قائلًا: حدثني عبدالرزاق الصنعاني.

وهنا يظن السامع أنه يقصد المحدث اليماني الكبير والإمام الثقة الشهير (عبدالرزاق الصنعاني)، والمدلس هنا أيضًا لم يكذب، فخالد هذا صنعاني، كما أنه عبد من عباد الرزاق سبحانه، فما موقف نقاد الحديث من هذا التمويه والتدليس الخطيرين؟

النقـاد هنـا حازمـون.. إنهم يرفضـون روايات الذين يمارسـون هـذا النوع مـن التدليـس.. يرفضونها حتـى لو أفصحوا عن أسـماء شـيوخهم بوضـوح لا يحتمـل التدليـس؛ لأنهـم أصبحـوا غيـر مؤتمنيـن علـى حديـث النبـي محمد صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ؟

فهل قرأ العالم مثل هذه العبقرية النقدية، والدقة في التحري؟ وهل يعرف أصحاب الديانات الأخرى مثل هذا النقد لكتبهم المقدسة؟

وبعـد: هـل انتهـت حيـل المدلسـين، أم أن هـؤلاء العباقـرة قد اكتشـفوا المزيـد مـن التدليس؟

الإجابـة هـي: أن المنهـج العقلـي لنقـاد الحديـث لا يكف عن الإدهـاش.. إنه يكشـف نوعًـا بالغ التزويـر من التدليس.. يسـمى:

(تدليس القطع)

وهـو تدليس نادر، ولكـن رصده يدل على عبقريـة نقدية لعلماء الحديـث المسـلمين فقط، وأمـا مثال هـذا التدليس فهـو: أن يقول المدلـس: حدثنا... ثم يسـكت مدة منهيًـا كلامه تمامًا،

وفجـأة يبـدأ بـكلام جديـد لا علاقـة لـه بكلامـه الأول؛ أي إنه يبـدأ بـكلام جديـد.. يبدؤه بذكر اسـم شـيخ ثقـة، فيتوهـم التلميذ والسـامع أن كلامـه متصـل، وأنـه قد سـمع من هـذا الشـيخ الثقة، وهـو فـي الحقيقـة يريـد إيهـام التلاميـذ أنـه قـد سـمع منـه، وهذا النـوع من المدلسـين لا يُقبل حديثهـم، حتى لو قالـوا: حدثنا فلان

مباشـرة، أو قال: سـمعت فلانًـا دون انقطاع، فهو غيـر مؤتمن على حديـث النبـي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

وبعـد، فقـد قـام نقـاد الحديـث بتأليف كتـب خاصـة بالتدليس وأنواعـه.. رصـدوا فيهـا، وأحصـوا المدلسـين، وقدمـوا قوائـم بأسـمائهم، ونـوع التدليـس الذي يمارسـه كل واحد منهـم؛ وذلك للتنبـه لهـم والحـذر مـن رواياتهم..

هـذا النقـد العقلي الجبـار.. كان ضروريًّا للحفـاظ على حديث نبيهـم محمد صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وقـد أبدعوه لأنهم يتعاملـون مع الحديث النبـوي بوصفـه وثيقـة، ويسـلمونه بوصفـه وثيقـة، وليس للتسـلية كمـا يفعـل القصاصون، فهل يعـرف العالم نقـدًا لأي كتاب مقدس آخر بلـغ هذا المسـتوى من التوثيـق والتدقيق؟

إن غير المسلمين يروون كتبهم المقدسة عن مجاهيل، والمجاهيل يروونها عن مجاهيل آخرين.. ضاربين عرض الحائط بأي مصداقية أو توثيق أو تدقيق.

سـؤال: بعد كل هذا الفحص والتمحيص العقلي، وبعد كل هذه الشروط المضنية والصعبة.. هل بقي للعقل مجال لنقد الحديث النبوي؟

الجواب: أجل.. فالنقل عمل بشـري، والعمل البشـري يتعرض للخطـأ؛ لـذا فمهمـة العقـل هنـا هـي التصويـب المسـتمر، وإزالة الشـوائب التـي قد تعيق وصـول الحديث إلى الأمة نقيًّـا، كما تلفظ

بـه النبي محمد صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ؛ لذا فلم يكتفِ العقل النقدي الإسـلامي بمـا سـبق فقط، فالنقـاد يواصلون التألق بشـكل مذهل:

إنهم ينظرون إلى السـند، وكأنه إنسـان، من حيث إن الإنسـان له ظاهـر وباطـن، وما مر معنا من نقد عقلي رائع.. كان موجهًا لجسـد السـند فقـط.. تلك الضوابـط التي مرت معنا معنية بسـلامة شـكل الحديث وظاهره فقط، والشـكل ليس كل شـيء، فالإنسان قد يبدو سـليمًا من الظاهر.. يمشي.. لا يعرج، ولا يهتز، ولكن قد تكون فيه علـة خفية لا تظهر لعين المشـاهد، ولا يعرفها إلا طبيب مختص..

هنـا تتجلـى العبقريـة النقدية الإسـلامية، حيـن يثبـت النقاد أن للأسـانيد والروايـات أمراضًـا خفيـة.. أمراضًا رصدها واكتشـافها وتشـخيصها لا يعتمـد علـى الدروشـة، أو الضـرب فـي الرمـل، أو ادعـاء الإلهـام والكرامـات، أو زعـم علـم الباطـن والكشـف..

إنهـا كشـوفات علميـة، ونتائـج مبنيـة علـى الدراسـة والعقـل والبحـث والتنقيـب والرصـد والمقارنـة، وهذه الأمراض يسـميها عباقـرة النقـد (العلـل) والعلـل علم متعـب، ومضنٍ، وشـائق معًا، وهـذا ما يفسـر نـدرة علمـاء علـل الحديـث بيـن علمـاء الإسـلام عامـة، وهـذه بعض تلـك (العلـل) التـي اكتشـفها نقـاد الحديث؟

بعض علل سند الحديث الخفية

منهـا: أن يكـون السـند متصـلًا ورجالـه ثقـات، وليـس فيـه

تدليس، ومع ذلك تكون فيه علة، مثل: أن يكون سبب الضعف هو الظرف الذي التقى فيه الاثنان.. مثال ذلك:

ذات يوم التقى عالمان.. الأول: من أفضل وأعلم وأحفظ وأوثق أهل زمنه، وهو محمد بن مسلم المعروف بـ(ابن شهاب الزهري)، والآخر: محدث مشهور ومن الثقات المعروفين.. اسمه هشيم بن بشير، وقد سافر هشيم للسماع والتتلمذ على الزهري، ولما وصل إليه (أخذ منه عشرين حديثا، فلقيه صاحب له، وهو راجع، فسأله روايته؟ وكان ثم ريح شديدة، فذهبت بالأوراق من يد الرجل، فصار هشيم يحدث بما علق منها بذهنه، ولم يكن أتقن حفظها، فوهم في أشياء منها، ضعف في الزهري بسببها)[1].

أي إن النقاد حكموا على أي رواية لهشيم عن الزهري بالضعف لهذا السبب، فأي أمة بلغت هذه الدرجة من التحري والدقة، في توثيق كتبها؟

من العلل الخفية التي رصدتها عقول نقاد الحديث، أن يكون حديث الراوي عن أهل بلده أقوى من حديثه عن أهل البلاد الأخرى: ومن الأمثلة على ذلك:

راوٍ وعالم وحافظ ثقة اسمه (إسماعيل بن عياش).. وصفه

(١) تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي ١/ ١٣٩.

تلميذ له اسمه يزيد بن هارون، فقال: «ما رأيت أحفظ من إسماعيل بن عياش»، ومع ذلك قال الناقد الكبير يحيى بن معين: «ليس به بأس في أهل الشام، وقال الناقد دحيم: هو في الشاميين غاية، وخلط عن المدنيين»[1]، وقال الناقد البخاري: «إذا حدث عن أهل بلده فصحيح، وإذا حدث عن غيرهم ففيه نظر»[2].

يا لها من كلمة لا تعرفها الأمم الأخرى!: إذا حدث عن غيرهم ففيه نظر.

ومن أدق العلل التي رصدتها عقول نقاد الحديث: أن يروي محدث حديثًا عن طريق سلسلة من الرواة متصلة إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم يكتشف النقاد أن راويًا أوثق منه قد روى الحديث نفسه بالسلسلة نفسها، ولكن دون ذكر الصحابي، فأي السلسلتين أوثق وأقوى علميًّا: السلسلة المتصلة؟ أم تلك السلسلة المنقطعة المرسلة التي ليس فيها صحابي؟ يا له من سؤال!

النظرة المتعجلة تقول: إن السلسلة الأولى أقوى؛ لأنها متصلة بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولكن العقل النقدي لعلماء الحديث يقول: إن السلسة المنقطعة التي ليس بها صحابي أقوى من السلسلة المتصلة.

---

(١) انظر: البدر المنير ٢/ ٥٤٩ والكامل ١/ ٤٧٧ لابن عدي.

(٢) ميزان الاعتدال: ١/ ٢٤١.

وهنا يرد سؤال منطقي يقول: كيف تكون السلسلة المنقطعة، أقوى من السلسلة المتصلة؟.. هذا يعني أن النتيجة ستكون أن الحديث غير صحيح.

هنا تتضح دقة وصرامة المنهج العقلي والعلمي لعلماء العلل حين يقول: إن الأهم في هذه القضية.. هو اكتشاف أي السلسلتين هي الحقيقية؛ لأن النقاد لا يعدّون نص الحديث وحده فقط هو الوثيقة، بل يرون أن سند الحديث وثيقة أيضًا؛ لذا فالحكم على السند جزء من الحكم على الحديث؛ لأنه لا يمكن الحكم على الحديث إلا بعد معرفة الوسيلة الحقيقية التي أوصلته إلينا؛ لذا لا بد من معرفة السلسلة الحقيقية التي نقلته مهما كانت متصلة أو منقطعة.

الأهم باختصار هو: أن جهد النقاد موجه أولًا إلى البحث عن السلسلة الحقيقية التي نقلت الحديث، ولأن النقاد قد حكموا بأن السلسلة المنقطعة هي السلسلة الحقيقية، فتكون السلسلة المتصلة وهمًا، ثم يكون الحكم النهائي بعد ذلك هو: أن الحديث ضعيف؛ لوجود علة الانقطاع بسقوط الصحابي.

وهنا قد يأتي تساؤل يقول: ألا يمكن أن يكون أحد الرواة قد أسقط سهوًا اسم الصحابي؟

والجواب العبقري الذي لم تصل إليه أي أمة من الأمم، ولا يعرفه أيضًا أولئك الذين يهاجمون السنة عن جهل.. الجواب

هـو: إن نقـاد الحديـث يقولـون: إن وجـود اسـم الصحابـي فـي السلسـلة الأولـى هو (زيـادة)، والزيـادة وثيقة؛ لذا لا تقبـل الوثيقة إلا مـن راوٍ أوثق من الراوي الذي أسـقطها أو مسـاوٍ له في الضبط.

الرائـع هنا.. هو أن رصد النقاد للزيـادة لا يقتصر على الزيادات فـي سلسـلة الـرواة، فمنهجهم دقيـق، وقـادر على رصـد الزيادات فـي ألفـاظ الحديـث أيضًا، لدرجـة أنه يسـتطيع رصد الزيـادة، ولو كانـت كلمة واحـدة في حديث قـد يبلغ طوله صفحـة كاملة، وهذا يأتـي في موضـوع آخر هـو: موضوع علـل الألفاظ فـي الأحاديث النبويـة، ويسـميه النقاد (علـل المتن) وهي الآتية إن شـاء الله.

تلـك بعض الإبداعات النقديـة العبقرية الموجهة للسـند، فماذا عن نقـد المتن؟

ما هو المتن؟ وما هي علله؟

متـن الحديـث هـو كلمـات النبـي محمـد ﷺ وألفاظـه، أو الألفاظ التي تصف سـنته أو سـيرته، وقد خضعـت المتون أيضًا للنقـد العلمـي والعقلـي، كمـا خضعـت الأسـانيد، وكما اكتشـف النقـاد العباقـرة نقـاط ضعف وعلـلًا للأسـانيد، فقد اكتشـفوا أيضًا علـلًا للمتـون، ورصـدوا أخطـاء فـي ألفـاظ الأحاديـث فـي رؤية نقديـة مذهلـة، ومـن تلـك العلـل التـي رصدوهـا بعـد الفحـص والتمحيـص العقلـي ما يأتـي:

- من العلل التي رصدهـا النقاد.. أن يكون لفظ الحديث مخالفًا لصريح القرآن؛ لأن القـرآن قد تم نقله نقلًا متواترًا. والمتواتر هو: ما تم نقله عن طريق أعداد كثيرة يستحيل أن تتفق، وتتواطأ على الكذب، ولكي يتضح معنى المتواتر أضرب هذا المثال:

شـخص يعلـم بوجود مدينـة اسـمها (تونس) وأنهـا عاصمة لدولـة تونس، ولكنه لم يزرها من قبـل، وفي أحد الأيام قابل صديقًـا له، فقال له هـذا الصديق: إنني قد زرت مدينة تونس، وهـي مدينة جميلـة، و...، و... وهي عاصمة الجزائر..

هنـا يكون كلام الشـخص الآخـر ضعيفًا وغيـر مقبول، حتى وإن زار تلـك المدينة؛ لأنه مخالف للتواتـر الذي نقله الناس من أن تونس ليسـت عاصمـة للجزائر.

هنـا قـد لا يكون الشـخص كاذبًـا، ولكنـه قطعًا مخطـئ؛ لذا فلا قيمـة لكلامه؛ لكثرة الذيـن نقلوا الحقيقـة، وهم من بلاد مختلفـة، ومن المسـتحيل أن يكونـوا متفقين علـى اختلاقها وادعـاء أنها عاصمة دولـة تونس.

وهكـذا تم نقل القـرآن.. نقلـه الملايين عن الملايين نسـخة واحـدة لا تعدد فيهـا، ولا اختلاف.. إذًا، فلـو خالف حديث القـرآن، فلا يلتفـت إليـه مهما كان سـنده قويًّا؛ لأنـه خطأ محض.

- من العلل في متن الحديث أن يكون لفظه مخالفًا لألفاظ حديث آخر متواتر؛ لأن أسانيد الحديث المتواتر كثيرة جدًّا، ولا يمكن أن تتفق على خطأ.

- مـــن العلل: أن يكون لفـــظ الحديث مخالفًـــا لألفاظ أحاديث جاءت بأسانيد أصح منه.

- مـــن علل المتن الدقيقـــة: أن يكون لفظ رواية شـــخص ثقة.. مخالفة لألفاظ زملائه الذين لازموا أســـتاذهم وشيخهم أكثر منه؛ لذا أطلق النقاد على هذه المخالفة مصطلح (الشـــاذ)؛ لأن ناقلها ثقة، ولكنه أخطأ، فشـــذّ، وخالف من هم أكثر التصاقًا بالشيخ منه، فهم أوثق في النقل.

أمـا إن كانت الرواية المخالفة جاءت عـن طريق راوٍ ضعيف الحفـظ، أو ليـس بثقـة، فالنقاد يطلقـون على لفـظ الحديث المخالف مصطـح (المنكر)..

هذه الرؤيـة العقلية النقدية العميقة.. أوصلـت النقاد إلى القدرة علـى اكتشـاف ضعف فـي لفظة واحـدة من ألفـاظ حديـث.. ربما بلـغ طولـه صفحة، وهنـاك علل أخرى كثيـرة ومبهرة اكتشـفها نقاد الحديـث النبوي.

تلـك كانـت بعـض الجوانـب العقلية في نقـد الحديـث النبوي وتوثيقـه، وهي تسـجل لأمة القرآن والسـنة تفردًا نقديًّـا مذهلًا على مسـتوى التاريخ والعالم قاطبـة، ففي حين نجـد للديانات الأخرى نسـخًا متناقضـة من كل كتبهـا الدينية، ثـم تقف تلـك الأمم عاجزة عـن تمييـز الكتـاب الصحيـح مـن الكتـاب المزيف، وهمـا بآلاف الصفحـات.. نجـد أمة الإسـلام تسـتطيع فـرز كلمة واحـدة مزيفة

في الحديث الواحد، بل تستطيع رصد اسم الراوي الذي زيفها، أو أدخلها عن قصد أو غير قصد.

يا لها من أمة عبقرية عظيمة!.. أمة ما زالت تحتفظ بقوائم لأسماء من نقلوا أحاديث نبيها ﷺ، حيث إن هناك كتبًا ذات مجلدات ضخمة خاصة بأسماء الضعفاء والكذابين، والمدلسين، بل والثقات الذين تغيرت أحوالهم في آخر حياتهم.

هذا بعض ما أنتجه المنهج العقلي الإسلامي في نقد الحديث، وهو يكشف حجم الجهل والتحامل الذي يعشش في رؤوس منتقدي الحديث النبوي، الذين يستخفون بعلم الحديث بسطحية ودون وعي.. متجاهلين أو جاهلين بجهود علماء الحديث ونقاده ورحلاتهم وغربتهم ومعاناتهم في التنقيب عن الأحاديث، وكأنهم ينقبون عن كنوز لا تقدر بثمن، وهي كذلك.

من هم نقاد الحديث؟

هم المتخصصون علمًا وممارسة في هذا العلم، وهذا يعني استبعاد العلماء الأجلاء من الفقهاء والمفسرين، والخطباء والوعاظ غير المتخصصين في النقد.

إن علم الحديث علم شاق ومضنٍ، ويحتاج إلى التفرغ، وبذل الجهد والأوقات في البحث والتحري، وهذا هو السر في أن عدد المتخصصين في علم الحديث في كل زمان قليل جدًّا، وعلماؤه مغمورون.. مقارنة بغيرهم من العلماء في الفقه

والتفسير والعقيدة، وغالبًا ما يكون نقاد الحديث غير مشهورين عند العامة؛ لانشغالهم بالتنقيب وتتبع الأسانيد واستخراج العلل، وهو مجهود مضنٍ، ويستهلك الأوقات الطويلة، ولكنه بالنسبة إلى الناقد أخاذ وممتع وشائق، ومن يمارسه يشعر بشغف عجيب له.. إنه علم دقيق؛ لذا لا يجذب العوام.

إنني أشبه علاقة عوام الناس بعلماء النقد، بعلاقة المشترين مع وكالة من وكالات السيارات، فعندما يتوجه المشتري للوكالة.. يقابل أناسًا أنيقين في الواجهة من مديرين ومشرفين وباعة ومسوقين ومحاسبين، ولكن خلف هؤلاء المهمين جدًّا.. هناك أناس يقبعون في الورش، ولا يحتاج إليهم صاحب السيارة إلا عند اكتشافه خللًا يقلقه فيها..

وحينها يقال له: توجه إلى قسم الصيانة، وعندما يتجه إلى هناك يجد أشخاصًا منهمكين بين المحركات والزيوت، وأحيانًا داخل حفر.. بعيدًا عن المكاتب الوثيرة والمكيفة، فإن خرج له أحدهم طلب منه تشغيل المحرك، ثم ينصت إلى الصوت، فيهز رأسه، ويخبره بالعلة.. حكم يبدو لصاحب السيارة أشبه بالكهانة، وما إن يبين له الخلل، ويشرح له السبب، ثم يصلح السيارة حتى يدرك أنه لم يكن أمام كاهن، بل كان بين يدي عالم متمرس ومتمكن.

والمدهش أن الذي أوجد هذا المنهج الدقيق للنقد هو القرآن الكريم، حين بيَّن أن قاع الكذب.. هو الكذب على الله جَلَّوَعَلَا والكذب

على رسوله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وهو بالغ الخطورة؛ لأن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يقول: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ [البقرة: ٧٩].

ثم عززته السنة، حين قام النبي محمد صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بالتحذير، والوعيد الشديد من الكذب عامة، ثم بيَّن أن الكذب على النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لا يقل خطورة عن الكذب على الله؛ لأنه تزوير في الدين، بل جعله النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ضمانًا لدخول جهنم، فقال: «**إن كذبًا علي ليس ككذب على أحد: من كذب علي متعمدًا، فليتبوأ مقعده من النار**»[1].. هذا التحذير الشديد من الكذب والتزوير.. أوجد منهجًا لرصد الحديث النبوي وفرزه بشكل علمي، وليس اعتباطًا، أو اعتمادًا على الدروشة أو ادعاء الكشف والكرامات.. منهج قائم على التثبت وتحري الدقة، والحذر من الوقوع في الكذب أو التزوير واستشعار خوف الله قبل ذلك.

أما قمة التهور، فتتمثل في ثناء بعض منتقدي الحديث على الكتب المقدسة الأخرى مناكفة وعنادًا للقرآن الكريم والسنة المطهرة، كما فعل كبيرهم المدعو (محمد أركون) في ثنائه على التوراة، واعتبارها كتابًا موثوقًا.

المحير أنه يقول ذلك الهراء، مع أنه يعلم أن هناك أكثر من

(١) صحيح البخاري: رقم ١٢٩١.

تـوراة، وبلغـات مختلفـة.. الكارثة أنـه لا توراة منها بلفظ موسـى، أو هـارون عليهما السـلام أو أحـد من أصحابهما، بل لا سـند لأي تـوراة منهـا، ولا يعـرف مـن نقلهـا، ولا مـن كتبهـا، كمـا لا يعرف مـن ترجمهـا، ولا مـدى دقـة ترجمتـه، وهـل مترجمها ثقـة أم لا، ولا تعـرف لغـة كل منهـا الأصلية..

أركـون يقـول ذلـك، مـع أنـه يعلـم أنـه لا توجـد تـوراة بألفاظ موسـى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولا حتـى بلغتـه التـي تكلـم بهـا حين نزلـت، ومع ذلـك يعدّهـا أركـون كتابًـا موثوقًا.

(أركـون) يعلـم وجود توراة سـامرية، وتوراة عبريـة، وغيرهما، وبينهـن كمـا بين السـماء والأرض، بل بلغـت وقاحة هـذا الكاتب أن يتهـم القـرآن الكريم بأنه ينقل عـن التوراة، ويحـرف نصوصها، وينقـص، ما يجعـل المـرء يشـك إما فـي عقل هـذا الكاتـب أو في جيبـه.. وإلا فـأي أنـواع التوراة نقل القـرآن الكريـم عنها وحرف؟

إنهـا مجرد ثرثـرة تتجاهـل أعظم حـدث للعرب بنـزول القرآن الكريـم بعـد التوحيـد.. إنهـا النقلـة الثقافيـة التـي أحدثهـا القـرآن الكريـم، وأحدثتهـا السـنة المطهرة.

النقلة الثقافية المذهلة

كيـف لا يتطرق هـذا الكاتب وأمثاله إلى النقلـة الثقافية المذهلة والفارقـة، التي أحدثها القرآن الكريم والسـنة المطهـرة في أقل من

عشر سنوات؟.. إنها نقلة تنويرية تشع كالشمس في كل اتجاه.. بدءًا من محو الأمية العربية، إلى التوثيق الكتابي في أمة اعتمدت على الشفهية طوال تاريخها.. مرورًا بصنع القرآن الكريم آلية عبقرية في التوثيق، وإيجاد منهج للنقل فريد بين الأمم.. بدءًا من توثيق القرآن الكريم المعجز نفسه، ثم اختراع منهج للنقل الحديثي كما مر معنا، ثم إيجاد منهج للنقد، كهذا الإبداع في تقسيم الأحاديث النبوية.

أقسام الحديث النبوي

قسم النقاد أحاديث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى قسمين:

أحاديث صحيحة، وأحاديث ضعيفة.

ثم قسموا الأحاديث الصحيحة إلى قسمين:

قسم صحيح، وقسم حسن.

الصحيح: هو ما توافرت فيه الشروط التي مرت معنا، وهو كمن يحصل في الاختبار على درجة النجاح بتقدير (ممتاز، أو جيد جدًا).

الحسن: هو ما توافرت فيه الشروط السابقة، ولكن بدرجة أقل.. أي كمن يحصل على درجة النجاح بتقدير (جيد أو مقبول).

أما الحديث الضعيف، فأقسامه كثيرة جدًّا، ولكن يمكن اختصارها في ثلاثة أقسام:

- ضعيف.
- ضعيف جدًّا.
- مكذوب، وهو الذي يسميه النقاد: (الحديث الموضوع).

الضعيف: هو الحديث الذي لم تتوافر فيه أحد الشروط السابقة، وهو كمن يحصل في الاختبار على درجة (ضعيف).

الضعيف جدًّا: هو أن يكون أحد رواته شديد ضعف الحفظ، لدرجة يخلط فيها الأحاديث ببعضها، أو أن يكون قد سقط من سلسلة رواته طبقتان، مثل أن يروي تابع التابعي حديثًا عن النبي ﷺ مباشرة، ولا يذكر شيخه التابعي، ولا الصحابي.

المكذوب ويسميه النقاد (الحديث الموضوع): وهو ما كان أحد رواته كذابًا، وهو ليس بحديث.

وقد مرت معنا بعض الشروط والعلل التي رصدها النقاد في نقدهم العلمي لأسانيد الأحاديث وألفاظها ومتونها، وبعد كل هذا...

أين هؤلاء الذين يتهجمون على البخاري ومسلم، ويزعمون أنهم ينقدون التراث..

أين هم من هذا المنهج؟ لماذا لا نرى لهم نقدًا لآليته؟

لِمَ لا يبدون رأيهم فيه؟

أم أنهم مجرد نسخ تردد أقوال أسلافها الفاشلين؟

ما الذي يحول بينهم وبين نقد منهج علماء الحديث؟

لِمَ لا يبدون رأيهم فيه نقطة نقطة، ويفندونه مسألة مسألة؛ لكي يثبتوا أنهم مثقفون حقًّا، وأنهم ملمّون بتراثهم عن وعي، بدلًا من الأحكام والمصطلحات المعلبة التي يرمونها رميًا لمجرد التشكيك مثل (الإسلاموية الماضوية والوثوقية والتقليدية والغيبية) وغيرها من العبارات الإنشائية التي يرثونها وراثة دون وعي؟

أم أنهم يخشون أن ينكشفوا، ويصبحوا أضحوكة حين يقومون بمناظرة أحد علماء الحديث ونقاده؟

لا أحد يحول بين هؤلاء وبين ذلك، ولكن عدو الحديث النبوي كائن كسول ومزاجي.. يرفض الأحاديث والسنة جملة.. هكذا.. بلا مبرر.. في مزاجية لا تليق إلا بالأطفال العنيدين.. هذا الكسول عندما ينتقد الإسلام.. يردد، ويقلد، ويجتر عبارات لملاحدة ولا دينيين غربيين عانوا من الكنيسة.

بل إنه يرتكب حماقة ثقافية، حين يتبرع بالدفاع عن أي تراث ديني غير إسلامي، ولو كان خرافة، وهذا كبيرهم المدعو (محمد أركون) أكبر مثال، مع أنه لو طبقت أي أمة منهج المحدثين على كتبها المقدسة لكفرت بها، بل إن تطبيق آلية علماء الحديث على كتبهم.. هو انتحار وقضاء على كتبهم المقدسة؟

كيف يطبق المسيحيون مثلًا منهج نقد الحديث على كتابهم المقدس؟

كيف يطبقونه وكتابهم المقدس يفتقد إلى اللغة الأصلية التي كتب بها أول مرة؟ كيف يطبقونه وكتابهم المقدس قد وصل إليهم من خلال ترجمات مجهولة، عن ترجمات ومترجمين مجهولين، وآلية نقل مجهولة؟ ودون أسانيد!

كيف يطبقون منهج نقاد المسلمين، وهم يقبلون تدخل الوثنيين في كتابهم المقدس، شيء لا يصدق، لكنها الحقيقة، فأكبر كارثة في هذا الشأن هي تدخل الإمبراطور الوثني (قسطنطين) عام ٣٢٥م، في (تحديد الكتاب المقدس المعتمد للكنيسة)، والذي لم يكتفِ بالتدخل فقط، بل قام بإقصاء أكثر من مئة إنجيل اعتباطًا، ثم فرض عليهم أربعة أناجيل بحسب مزاجه.. فرضها بحد السيف، ودون أية آلية علمية للفرز، أو الاختيار، ثم تمادى هذا الوثني حتى أصبح هو الذي يصمم للنصارى عقيدتهم، بل ويصمم أي إله يعبدون!

أي إن الذي حدد وفرض عقيدتهم هو شخص ليس منهم، وليس بنصراني، بل هو ملك وثني.. حددها بالسيف لا بالإقناع، ما جعل هذه الأناجيل الأربعة لا تملك أي ميزة مقنعة تميزها عن عشرات الأناجيل الأخرى المصادرة والمخالفة لها؛ لأنه قد تم فرضها بالقوة وليس بمنهج علمي مقنع..

إذًا، فالأناجيل هي مجرد كتب قابلة للتغيير والتبديل، والتدخلات والإضافة والحذف، وحتى الإقصاء، وقد اعترف البابا السابق (بينديكت السادس عشر) بهذا العيب، ولكنه أراد أن يتذاكى ليقلب الحقائق.. محاولًا جعل هذا العيب الكارثي ميزة تتفوق بها الأناجيل على القرآن الكريم.. يفعل ذلك على طريقة (عنزة ولو طارت)، ثم اعترف هذا البابا أن هذا هو سبب الخلاف بينهم وبين المسلمين؛ لأن المسلمين لا يرضون أي تدخل أو إضافة أو حذف في (القرآن الكريم).

البابا (بينديكت) وأمثاله هم قدوة منتقدي الحديث في قلب الحقائق، فبعد أن اعترف هذا البابا بالتزوير والتحريف في كتابه المقدس.. ركب رأسه، وحاول جعل تلك الكارثة شيئًا إيجابيًّا.. هذا البابا غالط العقل والعلم، وقلب الحقائق، وجعل التدخلات في الكتاب المقدس والحذف منه والإضافة إليه.. جعل كل ذلك تطورًا ومرونة، ثم تمادى في تطرفه، فجعل محافظة المسلمين على قرآن ربهم نقيًّا كما نزل جمودًا، وجعل عنايتهم بقرآنهم تشددًا؟!

المنهج الإسلامي الدقيق في النقد لا يعرفه النصيريون، ولا الدروز، بل ولا غلاة الصوفية أيضًا، بل إن غلاة الصوفية يسخرون من هذا المنهج العلمي لنقد الأحاديث؛ لأنهم يزعمون أن لديهم أسانيد أقوى، حيث يلخص أحد مشاهيرهم كل أسانيدهم بإسناد واحد يقول فيه مخاطبًا ومنتقدًا أهل السنة:

«أخذتم علمكم ميتًا عن ميت، وأخذنا علمنا عن الحي الذي لا يموت، يقول أمثالنا: حدثني قلبي عن ربي»[1]. إذًا، فغلاة الصوفية يروون عن الله جَلَّوَعَلَا مباشرة!

أما الشيعة الإمامية الاثنا عشرية، فلا يعرفون منهجًا علميًّا لنقد الحديث، وكيف يعرفونه ودينهم قائم على التقية في كل الأحوال، والتقية هي جواز الكذب لخدمة المذهب؛ لذا يقومون بالاستخفاف والسخرية من علم الحديث والنقد العلمي له، بل يسمونه علوم العوام، ويقصدون بالعوام (أهل السنة)، وسبب هروبهم من علم الحديث هو أنهم يفتقرون إلى وجود سلاسل للرواة والأسانيد تربط مؤلفي كتبهم بالنبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أو بعلي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، لدرجة أن أحد أهم كتبهم ومراجعهم المقدسة، وهو كتاب اسمه (نهج البلاغة) وهو عبارة عن مجموعة من الخطب ينسبونها لعلي بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ..

هذا الكتاب (نهج البلاغة) لا يعرف أحد حتى اليوم من هو مؤلفه، ولا الشخص الذي جمعه، وأما أكبر كارثة في هذا الكتاب، فهي أنه كتاب بلا أسانيد! أي إنه كتب بأسلوب القص واللزق.

لكن ما سبب فقر الشيعة من ناحية الأسانيد؟

السبب هو: أنهم لو أرادوا نقل الأحاديث بأسانيد متصلة، لاضطروا إلى الرواية عن الصحابة؛ لأنهم الحلقة الأهم في

(١) دراسات في التصوف (١٣٥).

السلسلة، ولكنهم إن رووا عن الصحابة فإنهم سينسفون مذهبهم وعقيدتهم؛ لأن عقيدتهم تقوم على تكفير كل أصحاب النبي ﷺ إلا أربعة، وإنهم لا يستطيعون النقل عن التابعين؛ لأنهم لن يجدوا فيهم بغيتهم؛ لأنهم تلاميذ الصحابة!

ومن أجل ذلك قاموا بتجاهل مسألة الأسانيد عن النبي ﷺ، أو حتى عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ولو تصفحنا أهم وأصح كتبهم واسمه (الكافي) لوجدنا رواياته ليست عن النبي محمد ﷺ، بل ولا عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه إلا نادرًا جدًّا.. إنها روايات منسوبة لأحد عشر رجلًا من نسل علي بن أبي طالب رحمهم الله تعالى؛ ولذلك يسمون الشيعة الاثنا عشرية، ومعظم رواياتهم منسوبة لأحدهم، وهو جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب الملقب بـ (جعفر الصادق)، وهو عالم ينتمي إلى جيل تابعي التابعين.

أي إن روايته عن النبي ﷺ (بحسب علم نقد الأحاديث) لا قيمة لها؛ لأنه قد سقط منها جيلان، وهما: جيل التابعين، وجيل الصحابة رضي الله عنهم، فكيف وهم يروون عن أبنائه وأحفاده؟

وأما الأخطر في كتب الروافض، فهو عدم ذكرهم للنبي محمد ﷺ إلا نادرًا مع أنه هو الأهم على الإطلاق، وبسبب هذا النقص الكارثي.. قاموا بابتكار علم للحديث عجيب غريب؛ لأنه مفصل على مذهبهم.. كيف ذلك؟

المنهج البديل عند الشيعة

لقد ألغوا ضرورة أن يكون الحديث عن النبي محمد ﷺ، فما البديل؟ البديل عندهم هو: إيجاد بديل للنبي محمد ﷺ نفسه.. أيعقل هذا؟ أي جنون هذا؟

أجل.. لقد قاموا بتوزيع الوحي على أئمتهم، ولم يحصروا الوحي والعصمة بالنبي محمد ﷺ...!!

قاموا بتوزيعها على اثني عشر شخصًا، هم:

- الصحابي علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وأحد عشر ابنًا وحفيدًا من نسله، هم:
- الحسن بن علي رضي الله عنه.
- الحسين بن علي رضي الله عنه.
- علي بن الحسين رحمه الله.
- محمد بن علي بن الحسين الباقر رحمه الله.
- جعفر بن محمد بن الحسين الصادق رحمه الله.
- موسى بن جعفر الكاظم رحمه الله.
- علي بن موسى الرضا رحمه الله.
- محمد بن علي الجواد رحمه الله.

- علي بن محمد الهادي رحمه الله.

- الحسن بن علي العسكري رحمه الله.

وأخيرًا شخص اسمه محمد بن الحسن العسكري، وهو مخلوق لم يرَ النور؛ ولذلك صمموه بطريقة عجائبية؛ كي يبرروا عدم وجوده، فمثلًا ادعوا أن والده لم يشعر بحمله، بل إن أمه لم تشعر بذلك، فقد حملته، وولدته في دقائق، ثم نهض فور خروجه منها على قدميه، وألقى خطبة عصماء، ثم سار حتى اختفى، وكلما جاع.. خرج وتناول ثدي أمه، ثم نهض واختفى...، ثم إن هذا المخلوق الذي يسمونه (المهدي) قام بعد أن بلغ سبعة أيام بالقراءة على والده من حفظه...، قام هذا الرضيع بقراءة كتب مقدسة غيبًا هي (صحف آدم باللغة السريانية)، ثم قرأ (كتاب إدريس) و(كتاب نوح) و(كتاب هود) و(كتاب صالح) و(صحف إبراهيم) و(توراة موسى) و(إنجيل عيسى) و(القرآن)، ولم يكتف بذلك؛ بل قص على أبيه قصص كل الأنبياء والرسل حتى النبي محمد ﷺ، كل هذا فعله في اليوم السابع كما تقول كتب الروافض، ثم قام بأعاجيب أخرى وهم يقولون إن عمره الآن يتجاوز أكثر من ١١٨٧ سنة.

ولا أدري لِم لم يريحوا أنفسهم من هذه الأمور ويقولوا إنه لم يولد، وإن الأئمة أحد عشر إمامًا فقط؟

ثـم زاد غلوهـم، فمنحـوا هـؤلاء الاثني عشـر عصمـة لا يصل إلى مسـتواها أي نبـي من الأنبياء، حتى لـو كان جدهم النبي محمد صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ثـم زاد غلـو الروافض في هؤلاء الأئمـة، حتى رفعوهم إلـى درجـة فوق درجـات البشـر والملائكة، بـل والأنبيـاء أيضًا... فعلـوا ذلـك وأكثر، حتـى يتخلصـوا من الإحـراج لعـدم امتلاكهم لأسـانيد مروياتهـم وعقيدتهـم وقصصهـم، ولكـي يتمكنـوا مـن اختـلاق أي حديـث يشـتهونه، ثـم يلصقونه بهـم أو بأحدهم!

إذًا، فتعريـف الأحاديـث عنـد الروافـض هـو: أقـوال وأفعـال علـي وأبنائـه وأحفـاده الأحد عشـر، ومن أجـل التمويـه.. وضعوا تقسـيمات لمروياتهم تتشـابه مع تقسـيمات نقاد الحديـث النبوي، وهـي الآتي:

درجات أحاديث الشيعة

حاول الشـيعة وضع تقسـيمات لحكاياتهم.. تشـبه التقسـيمات التـي وضعهـا نقاد وعلمـاء الحديث النبـوي للتمويه.. لقد قسـموا درجـات حكاياتهـم إلى أربعة أقسـام هي:

(صحيح، وحسن، وموثق، وضعيف).

لكن إشـكالية تلـك التقسـيمات الأربعة مهما كانـت، هي: (أنه لا علاقـة للنبي محمـد صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بها).

وهناك أيضًا عيب خطير لاحظته في أحاديث الشيعة، وهو وجود آلاف الأسانيد التي ينفرد بها مؤلفوهم، فإذا بحثت لها عن طرق أخرى تؤدي إليها لم تجد!

ما معنى طرق الحديث؟

للتبسيط.. سأستخدم المثال التالي من كتب أهل السنة:

هناك إمام ثقة.. هو محدث المدينة الكبير الإمام مالك بن أنس، وله كتاب حديث اسمه (الموطأ)، ومالك من الجيل الثالث؛ أي إنه معاصر لجعفر الصادق؛ أي من جيل تابعي التابعين. فمثلًا: يروي الإمام مالك حديثًا في كتابه عن تابعي ثقة اسمه نافع، ونافع هذا سمع هذا الحديث من الصحابي عبدالله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وعبدالله سمعه من النبي محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

المدهش هنا هو: أننا حين نبحث عن هذا الحديث في كتاب آخر غير كتاب مالك، سنجد شجرة مذهلة لهذا الحديث.. أي إننا سنجد أشخاصًا يروون الحديث عن غير مالك.. أي عن زملاء لمالك، وهؤلاء سمعوا الحديث عن نافع عن ابن عمر.

كذلك.. سنجد أشخاصًا يروون الحديث عن زملاء لنافع، وهؤلاء الزملاء سمعوا الحديث من ابن عمر مباشرة دون ذكر لنافع أو لمالك..

هذه الشجرة من الأسانيد تدل على صدقية أسانيد أهل السنة وعنايتهم بحفظها وتتبعها، لدرجة أننا نجد شخصًا عاش

فـي أقصـى الغـرب الأوروبي آنـذاك، مثل ابـن حزم الـذي كان في الأندلـس، وهـي فـي (إسـبانيا اليـوم).. نجـده يـروي حديثًا ما.

ثـم نجد شـخصًا آخر مـن أهـل العراق يـروي الحديث نفسـه، ثـم نجـد شـخصًا ثالثًـا مـن اليمـن يـروي الحديـث نفسـه، ورابعًا مـن أهـل المدينـة يـروي الحديث نفسـه، وخامسًـا من أهـل مكة، وهكـذا... فـإذا تتبعت سلسـلة شـيوخ وأسـاتذة هؤلاء الخمسـة.. وجدتهـا كشـوارع فرعية خمسـة تلتقي في شـارع رئيـس يؤدي بك إلـى النبـي محمـد صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ، على الرغـم من عدم وجود وسـائل تواصـل واتصال سـوى وسـائل الرحلة علـى الـدواب أو القوارب فـي طلب الحديـث.. إنه توثيـق مذهـل، وإعجاز لم تعرفـه إلا أمة القرآن والسـنة.

أمـا الشـيعة فتجد المؤلف الواحـد منهم يختلق آلاف الأسـانيد التـي لا وجود لها إلا عنده.. يختلقها فقط لكي يقول: لدينا أسـانيد كأهل السـنة، لكن حتى لو افترضنا وجود تلك الأسانيد والسلاسل المختلقة، فإنها تظل بلا قيمة؛ لأنها منقطعة الصلة بالنبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

أما الأعجب مـن هؤلاء كلهم، فهو ما يمارسـه منتقدو الحديث المعاصـرون.. ممـن يدعـون التصـدي للتـراث العربـي عامـة، والإسـلامي خاصـة، ثم نكتشـف أنهم من أشـد البشـر جهـلًا بهذا التـراث وآليـات نقله!

على سبيل المثال: نجد بعضهم يبجل كتبًا يجهلونها كالتوراة والأناجيل، بينما يتفننون في السخرية من علماء المسلمين في مقالاتهم وأفلامهم ومسلسلاتهم، حتى اختصروا ثقافتهم بأنها: (فن السخرية من المتمسكين بالإسلام).. هؤلاء لا يجرؤون على المساس بقس، وأما المساس بحاخام فمحاولة انتحار لا يجرؤ عليها حتى المثقفون الغربيون، لدرجة أن أحد رسامي الكاريكاتير لمجلة (شارل إيبدو) الفرنسية الساخرة، الذي رسم رسومات حقيرة بحق نبينا محمد ﷺ.. اعترف أنه تم طرده من المجلة؛ ليس لأنه أساء لنبي الإسلام، ولكن لأنه تجرأ فرسم ابن رئيس فرنسا (ساركوزي) ساخرًا من تركه للنصرانية واعتناقه لليهودية.

بل بلغ استغفال أحد كبارهم لقرائه أن يتفوه بكلمات لا يستطيع أن يتفوه بها حاخام، أو قس.. إنه يوثق التوراة جملة.. يوثق التوراة التي لا تُعرف لغتها الأصلية، ولا متى كتبت ولا من ترجمها، ولا مدى دقة ترجماتها، بل إنه لا يجرؤ على التساؤل عن عدد نسخها المتناقضة، وعلى الرغم من ذلك كله، فإنه لا يكتفي بتوثيقها، بل يتهم القرآن الكريم بالنقل عنها وتشويهها بالتزوير.

فلنتأمل على سبيل المثال: أكثر الكتاب العرب ادعاء لدراسة التراث العربي ونقده، وهو الكاتب الجزائري (محمد أركون).. هذا الشخص الذي يرتزق من مهنة التشكيك في القرآن الكريم والحديث النبوي، مع أنه لم يتطرق يومًا للكتاب المقدس

إلا بالتبجيل والثناء، وهنا قد يقول قائل: أركون كاتب مسلم، فما شأنه بالكتاب المقدس؟

والجواب الصدمة هو: أن (أركون).. لم يمضِ طفولته وشبابه بين المساجد، أو دور تحفيظ القرآن.. هو خريج مدارس تنصيرية تبشيرية بناها المستعمر الفرنسي في الجزائر، وبالتحديد المدارس المسماة (مدارس الآباء البيض التبشيرية)، وهي مدارس هام بها أركون، وبالغ في مدحها لدرجة أنه يقول: «عند المقارنة بين تلك الدروس المحفزة في مدرسة الآباء البيض مع الجامعة، فإن الجامعة تبدو كصحراء فكرية».

إذًا، فقد رعاه منصرون، ودعمه قساوسة، «وقد لفت أركون انتباه المبشرين، وظهرت محطة أخرى من الرعاية الكنسية في حياته، وهي دور المستشرق/ المبشّر لويس ماسينيون، فبعد محطة (الآباء البيض) جاءت محطة (المبشر ماسينيون)، وماسينيون ليس مستشرقًا علمانيًّا ككثير من المستشرقين، بل الحقيقة أن أكثر مشاهير المستشرقين علمانيون، لكن ماسينيون لم يكن كذلك أبدًا، بل كان مجاهرًا بكاثوليكيته والدعوة إليها وقيادة مؤسسات تبشيرية بكل وضوح»[1]، ومن المعروف أن فرنسا هي أم الكاثوليكية.

عشرات السنوات تتلمذ خلالها أركون على أيدي القساوسة والمنصرين.. احتضنوه، ودعموه، والنتيجة: صمت مريب،

(١) مصحف البحر الميت. مقالة للأستاذ (أ. س).

فلـم ينقـد تلـك البيئـة التـي ترعـرع فيهـا، ولـم يتطـرق لتراثهـا، بل قـام بتبجيلهـا وتبجيـل الكتـاب المقدس علـى طريقة المبشـرين.. طريقـة لا تمـت للعلـم ولا للعقل بصلـة، لدرجة أنه يقـول: «مهمة التحليـل التاريخـي لا تتركـز في الكشـف عن المؤثـرات التي أتت مـن مصدر موثـوق وصحيـح، وهو (التـوراة)».

ثـم يتطرف وكأنه صليبي، فيدين القرآن الكريم، ويتهمه بالتزوير والتشـويه للتـوراة، ويطالب بإدانته قائـلًا: «وبالتالـي إدانة الأخطاء والتشـويهات والإلغـاءات والإضافـات التـي يمكـن أن توجـد في النسـخة القرآنيـة بالقياس إلـى النسـخة التوراتيـة»[1]، إذا فهو يجزم بصحـة التوراة، كمـا يجزم بتحريف القـرآن بل وتشـويهه للتوراة.

حسـنًا دعونا نكتشـف مدى الصـدق أو الدجل فـي زعم أركون عـدو القرآن الكريـم والحديث النبوي، فالأمور المشـتركة بين هذه الكتـب التي سـكت عنهـا كثيرة جدًّا، وسـيطول المقام لـو ذكرتها؛ لـذا سـأذكر بعضها؛ لنكتشـف التزوير والتشـويه الذي فعلـه القرآن الكريم كمـا يدعي هذا المفكر العربي البارز، فلنأخذ المثال الأول:

خلق السماوات والأرض

تتحـدث التـوراة عـن خلـق السـماوات والأرض، وعن سـبب جعـل عطلـة بنـي إسـرائيل الأسـبوعية، هـي يـوم السـبت، فتقول

(١) الفكر الإسلامي. قراءة علمية، ١٣٠.

أن الله قال: «في ستة أيام تعمل وتنجز جميع أعمالك، واليوم السابع سبت للرب إلهك، لا تقم فيه بعمل ما، أنت وابنك وابنتك، وعبدك وجاريتك وبهيمتك ونزيلك الذي في داخل أبوابك؛ لأن الرب في ستة أيام خلق السماوات والأرض والبحر وجميع ما فيها، وفي اليوم السابع استراح؛ ولذلك بارك الرب يوم السبت وكرسه له»[1].

هذا الكلام البذيء في حق الله، الذي يجعله سبحانه متصفًا بإحدى صفات النقص البشري، وهي التعب والحاجة إلى الراحة.. هو في نظر أركون صحيح وموثوق؛ لأن مصدره التوراة، مع أنه مخالف للعلم التجريبي الحديث الذي طالما ثرثر هؤلاء المفكرون العرب في الثناء عليه.

التوراة هنا تتحدث عن أيام الأسبوع، مع أنها لم توجد بعد، فالشمس حينها لم تخلق، فكيف يكون هناك سبت وأحد وإثنين، بل كيف يكون هناك أسبوع؟

هذا التخبط يراه أركون صحيحًا وموثوقًا، والقرآن شوّهه ونقص فيه وزاد، فلنتأمل التزوير الذي أضافه القرآن الكريم للتوراة، كما يزعم أركون:

أولًا: القرآن الكريم لا يتحدث عن أسبوع، ولا عن سبت

(١) الكتاب المقدس. التوراة، الخروج ٢٠.

ولا عن ثلاثاء ولا غيرها.. هو يتحدث عن أيام كونية لا يعلم قدرها ولا مدتها إلا الله، فالأيام الكونية في القرآن الكريم متفاوتة.. هناك يوم طوله ألف عام كما قال القرآن الكريم: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة:٥]، وهناك يوم طوله خمسون ألف سنة كما يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج:٤]، وهناك أيام أطول لا يعلم طولها إلا الله؛ لذا فالقرآن الكريم، عندما يتحدث عن خلق السماوات والأرض في ستة أيام.. يتحدث عن أيام كونية لا علاقة لها بأيام الأسبوع، وإذا كانت بعض الأيام بذلك الطول بعد خلق السماوات والأرض، فكم هو مقدار الأيام قبل خلقها؟ ولذا فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقول: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق:٣٨]، وهنا يؤكد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنه لم يصبه اللغوب الذي يصيب المخلوقات، واللغوب هو التعب.

هذا الكلام العظيم الذي يصف الجبار نفسه فيه بصفات تليق به سبحانه.. هذا الكلام في نظر المفكر (أركون) تشويه وتزوير!

فلنتأمل الطامة الأركونية التالية حول أمور مشتركة أخرى:

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ **والنبي يعقوب** عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ

هناك طامة أخرى في التوراة تتعلق بعلاقة النبي يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ويعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ له اسم آخر، وهو (إسرائيل)،

ففي القرآن الكريم هو نبي ابن نبي ابن نبي.. هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وهو نبي كريم يدعو لعبادة الله وحده لا شريك له، ومع كونه نبيًّا إلا أن أبناءه استطاعوا خداعه، وألقوا ابنه يوسف في بئر، فبكى على فراقه سنوات طويلة، حتى ابيضت عيناه من الحزن، وأصيب بعمى مؤقت، ولما لامه أبناؤه على طول حزنه قال لهم: ﴿إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [يوسف:٨٦].

ولما رد الله له ابنه يوسف، ثم شاخ، وحضره الموت التف أبناؤه حوله، فقال لهم: ﴿مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِي قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ [البقرة:١٣٣].

إذًا، فيعقوب في القرآن الكريم نبي كريم.. يجري عليه ما يجري على البشر، بل يرى نفسه عبدًا ضعيفًا خاضعًا لله.. محتاجًا إليه.. هذه هي الصورة الطبيعية لأي نبي، ولكن أركون يرى أن هذه الصورة التي قدمها القرآن الكريم تزوير وتشويه من القرآن الكريم لشخصية يعقوب، وأن الصورة الحقيقية والموثوقة هي التي قدمتها التوراة له، بل إن القرآن الكريم حذف سبب تسمية يعقوب بلقب إسرائيل.

فلننظر إلى صورة يعقوب في التوراة، التي يراها أركون أنها الصورة الصحيحة والموثوقة..

التوراة تقول: إن يعقوب كان يومًا يسير في أحد الأودية، وإذ به يقابل الله وهو يمشي في الوادي نفسه، ولما تقابلا وجهًا لوجه تصارعا.. فعجز الله عن طرح يعقوب، أرضًا، فلجأ الله إلى الغش وضرب ورك يعقوب، ولذا فاليهود لا يأكلون لحم الورك، ثم تقول التوراة: إن يعقوب كان قويًّا إلى درجة أنه رفض أن يفلت الله حتى يباركه، فباركه الله، بل منحه لقب بطولة هو (إسرائيل)، فأفلته يعقوب، وأطلق سراحه قبل طول الشمس؛ حتى لا يراه الناس، فينفضح. وهذا هو النص كما جاء في التوراة:

«وقام يعقوب في الليل، فأخذ امرأتيه وجاريتيه وبنيه الأحد عشر وعبر مخاضة يبوق، أخذهم، وأرسلهم عبر الوادي... وبقي يعقوب وحده، فصارعه رجل حتى طلوع الفجر، ولما رأى أنه لا يقوى على يعقوب في هذا الصراع.. ضرب حق وركه، فانخلع، وقال ليعقوب: «طلع الفجر، فاتركني»، فقال يعقوب: «لا أتركك حتى تباركني»، فقال الرجل: «ما اسمك؟» قال: اسمي يعقوب، فقال: لا يدعى اسمك يعقوب بعد الآن، بل إسرائيل؛ لأنك غالبت الله والناس وغلبت، وسأله يعقوب: أخبرني ما اسمك؟ فقال: لماذا تسأل عن اسمي، وباركه هناك، وسمى يعقوب ذلك الموضع فنؤيل، وقال: لأني رأيت الله وجهًا إلى وجه، ونجوت بحياتي، وأشرقت له الشمس وهو يعبر فنوئيل عارجًا من وركه؛ لذلك لا يأكل بنو إسرائيل عرق النساء،

الـذي فـي حق الـورك إلى هذا اليـوم؛ لأن الرجل ضـرب حق ورك يعقوب علـى عرق النسـاء»[1].

أي مهزلـة هـذه؟! وأي إلـه هـذا الـذي يصرعه بشـر، فيلجأ إلى الغـش؟!، تعالـى الله عمـا يقولـه هذا الدجـال الوضيع الـذي كتب هـذا الغباء، وفضح نفسـه، حين قـال: «لذلك لا يأكل بنو إسـرائيل عـرق النسـاء، الذي فـي حق الـورك إلى هـذا اليوم».

إن كلمـة: «إلـى هذا اليـوم» كافية لكشـف التزوير لـو كان لدى أركـون عقل وضميـر وأمانة علميـة.. كان المفترض منـه أن يقول: ما تاريـخ هذا اليـوم الذي يتحدث عنـه هذا الكاتـب؟ ومن هو هذا الكاتـب؟ إنه ليس موسـى ولا هـارون ولا أي نبي مـن الأنبياء؟

تـرى أي احتفاليـة سـيحدثها أركـون لـو كانـت هـذه الكلمـة موجـودة فـي القـرآن؟!

وأما الكارثة الثقافية فهي: أن (محمد أركون) يطالب المسـلمين بتقديـم معلومات عما جرى خـلال الدقائق التي تفصـل بين لحظة نـزول أي سـورة علـى النبـي محمد وبيـن لحظـة إملائه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لهـا علـى أصحابـه، لكنـه لا يجرؤ علـى طرح السـؤال نفسـه على آلية كتابة التـوراة، ونقلها؟

ذلـك الـكلام الحقير بحق الجبـار سـبحانه ﴿وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ﴾

(١) الكتاب المقدس. التوراة، التكوين ٣٢.

هـو فـي نظر أركـون (حقيقـة).. هو الموثـوق، بل إن أركـون يزعم أن القـرآن شـوه القصة، فحذفها.. هذا هو المفكـر العربي (أركون) الـذي درس (الكتـاب المقدس) فـي المدارس التبشـيرية، ووعدنا منـذ خمسـين عامًا بنقـده، وفـي النهاية هـذا ما نحصل عليـه منه.. إنـه أكثـر صليبية مـن جنود محاكـم التفتيش..

حتى أسـتاذ الحداثة العربية الأول (يوسف الخال)، وهو حداثي نصرانـي، ولكنـه حداثـي برتبة قسـيس لدرجـة أنه أمضـى أكثر من عشـرين عامًا في دراسة وترجمة التوراة للعربية بلغة بليغة لترويجه، حيـث فضحـه الكاتبان (لوك باربولوسـكو، وفيليـب كاردينال) في مقابلـة معه فـي كتابهمـا: (رأيهم في الإسـلام).. فضحـاه وفضحا حداثتـه، فقـالا فـي مقدمتهمـا: «إن رمز الحداثـة العربيـة العلماني (يوسـف الخال) يشـارك بعض المختصين في ترجمة (التوراة) منذ خمسة عشـر عامًا»[1].

ومـع ذلك لم يقدم (رمـز الحداثة العربية يوسـف الخال) هذا.. أي نقـد لهـذا النص ولا لهـذه القصة بصفتـه حداثيًّا، ولـو كان هذا النـص فـي القـرآن الكريم، لأقـام أولئـك الحداثيـون الاحتفالات بسـقوط القرآن الكريم والقضاء عليـه، لكن لأن النص في (الكتاب المقـدس) فهـم صم بكم عنـه، بل يترجمونـه بلا خجل.

هناك مشترك آخر مؤلم جدًّا بين القرآن الكريم والتوراة.

(١) رأيهم في الإسلام، ٢٤.

الله طيب يأمر بأكل الطعام الطيب

الله عَزَّوَجَلَّ في القرآن الكريم جميل يحب الجمال.. طيب لا يقبل إلا الطيب، ويأمر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بأكل الطيب، فيقول لليهود: ﴿كُلُوا مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ [البقرة:٥٧]، ويقول للمسلمين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة:١٧٢]، بل يقول لكل رسله وأنبيائه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون:٥١].

هكذا يوصي الله عَزَّوَجَلَّ رسله عليهم الصلوات والسلام كما جاء في القرآن الكريم، ولكن المفكر أركون.. يرى أن هذا تزوير للحقيقة التي جاءت بها التوراة الموثوقة والصحيحة، فما هي الحقيقة التي يدافع عنها أركون؟.. إنها الصدمة الآتية:

الله عَزَّوَجَلَّ يأمر بأكل البراز

إذا كان الله عَزَّوَجَلَّ كاملًا وجميلًا، ويحب الجمال، ويأمر بالطهارة والنظافة، فإنه منزه عن كل نقص وعيب، ولكن أركون يأبى ذلك؛ لأنه يثق بما جاء في التوراة، وهو أن الله أمر النبي حزقيال أمرًا قال فيه: «لتأكل كعكًا من الشعير على الخرء الذي يخرج من الإنسان، تخبزه أمام عيونهم»[1].

هذا هو أبرز المفكرين العرب.. يحمل حقدًا على القرآن الكريم يجعله يفقد عقله.. فيطلق عبارت تمجيدية وأحكامًا

(١) الكتاب المقدس. التوراة مراثي إرمياء ٤.

مرسلة.. ينقلها نقلًا.. يرددها كما يردد العامة تراتيل الكهنة والقساوسة في دور العبادة.. يفعل أركون الحداثي ذلك تأثرًا بشعارات تطلقها مؤتمرات تبشيرية ومحطات تنصيرية تخفي أكثر من ٩٠٪ من تراثها خجلًا، ولا تبدي منه إلا النادر.. هذا بعض ما يتعلق برب الأرباب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وأما الأنبياء فالنصوص التي يسكت عنها (محمد أركون وأمثاله) مخجلة للغاية، وتتعلق بدياثة الأنبياء وزنا المحارم بينهم، وما إلى ذلك مما يطير صواب الإنسان لمدى التزوير فيها، وأما بالنسبة للمرأة (السلاح المفضل) عندهم للطعن في القرآن الكريم، فسأقتصر على ذكر منزلة المرأة حين تصيبها الدورة الشهرية، وهو أمر مشترك بين الكتابين.

المرأة تنجس كل شيء

يقول أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كانت المرأة من اليهود إذا حاضت لم يؤاكلوها، ولم يشاربوها، ولم يجامعوها في البيت، فأنزل الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة:٢٢٢]، فأمر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يؤاكلوهن، وأن يشاربوهن، وأن يجامعوهن في البيوت، ويفعلوا ما شاؤوا إلا الجماع. فقالت اليهود: ما يريد هذا الرجل أن يدع شيئًا من أمرنا إلا خالفنا فيه»[1].

(١) صحيح مسلم: (رقم ٣٠٢) والطيالسي: ٢١٦٥ واللفظ له.

هـذا الكلام الجميـل لا يعجب المفكر (محمـد أركون)...، هو فـي نظره تزويـر وتحريف، فمـا هي النصـوص التوراتيـة الموثوقة حـول وضـع المـرأة فـي فتـرة حيضهـا وطمثهـا، التـي يحتفـي بها أركـون، ويراها هـي الأصح؟ إنهـا الآتي:

التـوراة تحكم بنجاسـة المرأة طوال مدة فـي مدة الحيض، ليس ذلـك فقط، بـل إنها تنجس أي شـيء تلمسـه، أو يلمسـها، أو تأكل منه، أو تأكل فيه، أو تشـرب منه أو تشـرب فيه، أو تلبسه، أو تجلس عليـه، ليـس مدة حيضها فقط، وهي أسـبوع تقريبًا، بل أسـبوعان..

أي إنهـا تمـارس التنجيس مـدة نصف كل شـهر؛ أي مدة نصف كل عـام.. أي نصـف أزهى أيـام عمرها، حيـث تقول التـوراة:«إذا كان بامرأة سـيلان دم من جسـدها كعادة النسـاء، (يعني إذا حاضت المـرأة)، فسـبعة أيـام تكـون فـي طمثهـا..»[1] أي إن المـرأة تصبح نجسـة خلال مـدة الطمـث؛ أي الحيض.

أقـول: قد يمكـن التغاضي عن ذلـك، واعتباره نجاسـة معنوية، لا تقـدم ولا تؤخـر، إلا أن العبـارة الآتيـة تهـدم كل جميـل: حيث تقول التوراة: «وسـبعة أيام تكون في طمثها، وكل من لمسـها يكون نجسًـا إلـى المغيـب» أي إن مـن يصافحهـا، أو يقبلها، أو تلمسـها يظل نجسًـا، حتى وإن اغتسـل، واسـتحم، فنجاسـة المـرأة لا تفيد معهـا محيطات الدنيا بأسـرها.

(١)) الكتاب المقدس. التوراة، اللاويين ١٥.

ولكـن ربما قال مسيحي أو يهـودي: إن المقصـود باللمس هنا هـو جمـاع الرجـل لزوجتـه، كمـا هـو عنـد المسـلمين فـي القرآن الكريم؟

هنا يتدخـل الكتاب المقدس بقوة، نافيًا ذلـك، بل يقرر ويحكم أن المرأة ليسـت نجسـة فقط، بل هي مصدر النجاسـات، وأحسـن طريقـة للتعامـل معهـا هـي نبذهـا، والبعـد عنهـا، ورميهـا كالنفاية خـارج المنـزل، فلا حـل لهـا سـوى ذلـك، حيـث تقـول التـوراة: «وكل مـن لمسـها يكون نجسًـا إلـى المغيب، وجميـع ما تضطجع أو تجلـس عليه فـي طمثها يكون نجسًـا».

إذًا.. التوراة تقرر أن الكراسـي والأسـرة والطاولات والملاعق والأقـداح والأطبـاق وقائمـة الأدوات المنزليـة، وحتـى مقابـض الأبـواب والنوافـذ، وأدوات الطب التي تلمسـها الطبيبة المسـيحية الحائض، بل والسـيارات والطائـرات والقوارب، وحتى السـفن.. كلهـا معرضـة إلى أن تكون نجسـة إذا لمسـتها امرأة أو فتـاة يهودية أو مسـيحية حائـض، ولـم تكتـفِ بهـذا.. بل إنهـا تقرر أن نجاسـة المرأة تفوق نجاسـة أقذر الحيوانات.. إنها أشـبه بالطاعون والوباء المتطايـر فـي كل اتجـاه، حيـث تقـول: «وكل مـن لمـس فراشـها يغسـل ثيابـه، ويسـتحم بالماء، ويكون نجسًـا إلـى المغيب».

تـرى مـن يتصور أن هـذا الكلام ينسـب لله تعالـى؟.. من يجرؤ على الدفـاع عنه؟

لا أحـد غيره.. إنـه المفكر العربي الكبير (محمـد أركون) الذي تلقـى تعليمـه وهـو طفل فـي المـدارس التنصيرية.. إنـه لم يخجل مـن مأسـاة الفتـاة الغربيـة المسيحية واليهوديـة طـوال القـرون الماضيـة.. الفتاة المسـكينة التي أرغمت على الإيمـان بأنها مصدر للنجاسـات كل تلـك القرون.

وأمـا العبـارة الآتيـة فتجعـل من الفتـاة قـذارة لا تطـاق، عندما تقـول التـوراة: «وإن كان علـى فراشـها أو على ما هي جالسـة عليه شـيء، فمن لمسـه يكون نجسًـا إلى المغيـب» أي إن هذه الأشـياء لا تتنجـس فقـط، بـل تتحول إلى قـذارة..

تـرى أي جحيم كانت تعيشـه فتياتهم داخـل منازلهم خلال مدة طمثها، بل أي جحيم ذاك الذي ستصطلي به الأسرة في تلك المدة؟ ما الحل الذي يضعه هـذا الكتاب المقدس للتعامل مع الحائض إن كان: الفراش نجس منجس.. السرير نجس منجس.. الكرسي والأريكة والوسـائد والسـتائر كلهـا نجسـة.. الأطباق والأكـواب والكؤوس والملاعق والسكاكين والأشواك، والمناضد وطاولات الطعام كلها نجسة، وتنجس من يلمسـها، وكذلك الأبواب والنوافذ والسيارات والطائرات والقطارات؟ لا أتساءل ساخرًا، فالسخرية من كلام الرب كفر وتجديف، وأركون يقول: هذا كلام موثوق وصحيح.

أمـا المصيبـة التـي هانـت معهـا المصائـب كلهـا، فهـي مصيبة الـزوج؛ لأنه مهـدد بأكثر مـن النجاسـة.. مهدد بأمـر لا يخطر على بـال عاقل أبـدًا، وهو:

تحول الرجل إلى امرأة نجسة

التوراة الموثوقة عند الكاتب أركون قادرة على تلك المعجزة.. تستطيع تحويل الزوج إلى زوجة، والرجل إلى امرأة، والذكر إلى أنثى.. ولكن من النوع النجس، الذي يلوث زوايا المنزل النظيف وأثاثه الجميل.. كل تلك الأمور الشنيعة تحدث عندما تقول التوراة: «وإن ضاجعها رجل، فصار طمثها عليه، يكون نجسًا سبعة أيام، وكل فراش يستلقي عليه يكون نجسًا... إلخ».

أجل، الرجل ينجس سبعة أيام من أجل قطرة دم قطرها ملليمتر واحد فقط؛ لأن مصدرها امرأة، فماذا عن المرأة التي تتبرع بشيء من دمها لزوجها أو ابنها أو أخيها؟ ترى كيف كانت حياة الأزواج مع زوجاتهم، خاصة المتدينين منهم؟

الأمر لا يهم الكاتب أركون، فقد بلغ حقده على القرآن الكريم درجة أن يتهمه ويتهم النبي محمدًا ﷺ بالتزوير؛ لأنه لم يفرض هذه الأحكام..

أركون يشعر بالغل من التعامل الراقي للنبي محمد ﷺ مع زوجته عائشة خلال مدة حيضها، حيث تقول عائشة رضي الله عنها: «كنت أشرب وأنا حائض، ثم أناوله النبي ﷺ فيضع فاه على موضع في، فيشرب، وأتعرق العرق (وهو العظم الذي بقي عليه قليل من اللحم) وأنا حائض، ثم أناوله النبي ﷺ فيضع فاه على موضع في»[1].

(١) صحيح مسلم: رقم ٣٠٠.

هـذا التعامـل العذب، وكأنه لعاشـقين.. هذا الرقي فـي التعامل مـع الحائض في نظر الكاتب العربي المثقـف محمد أركون تزوير، أمـا التـوراة فـكل شـيء تقولـه صحيـح وموثـق، حتـى لو نجـس الرجل سـبعة أيام بسـبب قطـرة دم من امرأة.. حتـى لو نجس طوال حياتـه؛ لأنها تبرعت لـه بدمها.

وبمناسـبة قطـرة الدم هـذه.. دعونا نتأمل تحضر الإسـلام الذي لا يعجـب منتقـدي الحديث النبوي، فعائشـة تتحدث أنـه ربما نزل منهـا دم، وهـي نائمـة، فيصيـب النبـي أو ثوبه ﷺ شـيءٌ من الـدم، فكيف كان يتصـرف زوجها عليه السلام؟

كان النبـي ﷺ لا يغسـل ثوبـه، بل يغسـل موضـع القطرة فقـط، ثـم يصلي فـي ثوبه ذلك، حيـث تقول عائشـة رضي الله عنها: «كنت أبيـت أنـا ورسـول الله ﷺ فـي الشـعار الواحد، وأنـا طامث حائـض، فـإن أصابـه منـي شـيء غسـله، لم يعـدُ مكانـه، وصلـى فيـه»[1]، ومعنى (لم يعْدُ مكانه)، أي لم يغسـل مـن ثوبه الذي أصابه الـدم إلا مـكان قطـرة الـدم فقط، ثـم يصلي في ثوبـه ذلك.

إن أحـكام (محمـد أركـون) الإنشـائية، وكلامـه عـن صحـة التـوراة وتشـويه القـرآن الكريـم.. تعصـب لا يقولـه إلا جنـدي

(١) سنده صحيح رواه أحمد ٢٤١٧٣: حدثنا يحيى، عن جابر بن صبح: سمعت خلاسًا: سمعت عائشة، يحيى أحد الثقات الأثبات، وجابر ثقة أيضًا وجابر بن صبح ثقة وكذلك خلاس بن عمرو، لكنه يرسل، أي إنه يروي أحيانًا عمن لم يسمع منه، لكنه هنا صرح بالسماع من عائشة رضي الله عنها.

صليبي ينفذ أوامر سادته، وهو يكشف أنه كائن مسكون بالكراهية لكل ما يمت للإسلام بصلة، على الرغم من لافتات الحياد والموضوعية التي يمارس الدجل تحتها، والدليل هو أن (محمد أركون) هذا، قد وعد بدراسة الكتب المقدسة لليهود والنصارى والمسلمين وغيرهم.. قبل وفاته بنصف قرن، بل إنه ادعى أنه مشغول بقراءة كل ما أُلِّف عن تلك الكتب المقدسة بكل اللغات الغربية والعربية، وأنه بعد أن يفحصها سيتصدى إلى مهمة أخرى، وهي إيجاد المصطلحات النقدية لها!

والنتيجة بعد كل هذا الهراء هي: لا شيء، بل فضيحة مدوية.

أركون فضيحة المصطلحات المدوية

من الأدلة على فشل المفكر العظيم (محمد أركون).. زعمه صنع المصطلحات العلمية للتراث، ولكنه حين قام بإثبات ذلك.. إذا به يفشل فشلًا ذريعًا.. مقدمًا مصطلحات مضحكة.. على سبيل المثال:

أراد أركون أن يقدم لقرائه مصطلحين للقرآن الكريم، وللسنة المطهرة، حتى يكشف للقارئ الفارق بينهما، ولكنه لم يكشف سوى فشله الذريع.. فشل جعله يسقط على رأسه سقوطًا مدويًا أمام أشهر وأهم مصطلحين في الإسلام.

إنه يقول: «حسب الرواية الرسمية لطريقة تشكل القرآن في مصحف، المعترف بها، من قبل الجميع السنة كما الشيعة

والتي تهيمن بمصداقيتها على الكل، فالنبي كان قد تكلم خلال العشرين عامًا بطريقتين مختلفتين متمايزتين:

في الحالة الأولى كان يتكلم بصفته مبعوثًا من قِبل الله، ومحملًا بمهمة عاجلة، ونتج عن ذلك (القرآن).

وأما في الحالة الثانية فتكلم بصفته الشخصية كقائد ملهم، مما أنتج ما سمي (بالحديث النبوي) الذي ينطوي على تعاليم النبي»[1].

هذا الخلط الأركوني العجيب الغريب، الذي قدم له بكلمة ضخمة مضللة لاستغفال قرائه، حين قال: «حسب الرواية الرسمية لطريقة تشكل القرآن في مصحف، المعترف بها، من قبل الجميع».. هذا الخلط يدل على أنه بين حالتين:

إما أنه يعتمد على كتابات مستشرقين حاقدين، أو أنه يكذب، ويصدق كذبته، وهو الأقرب؛ لأنه: لا تعريفه للقرآن صحيح، ولا تعريفه للحديث صحيح أيضًا.. لا عند السنة، بل ولا حتى عند الشيعة أيضًا، فالقرآن الكريم عند المسلمين هو غير ما يقوله تمامًا.. القرآن هو: «كلام الله المنزل بألفاظه على نبيه محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، المنقول بالتواتر حفظًا في الصدور، وكتابة في المصاحف والسطور».

وهنا قد يسأل سائل، فيقول: ما هو دور النبي محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذًا؟.. ما هو موقعه بالنسبة إلى القرآن الكريم؟

(١) تاريخية الفكر العربي الإسلامي ٢٨٨.

والجـواب هو: أن دور النبـي ﷺ كان مقتصرًا على مجرد قـراءة القـرآن وتلاوتـه كمـا أُنـزل عليـه.. أي قراءتـه دون تصـرف أو زيـادة أو نقصـان؛ لأن محمدًا يتلقاه بألفاظـه، فيؤديها كما تلقاها تمامًـا؛ أي إنـه مجـرد ناقل أمين للقـرآن الكريم.

إذًا، فتعريـف أركـون للقـرآن الكريـم هـو تعريـف إنشـائي من شـخص لا يعـي ما يخرج من رأسـه، ولكـي أقرب ذلـك للقارئ.. دعونـا مثـلًا نتابع قسًّـا أو حاخامًـا يقرأ موعظـة من كتابـه المقدس دون ورقـة، بـل مـن حفظـه أمـام حشـد.. سـنجده يسترسـل فـي القـراءة بأريحيـة، والحشـد يهـزون رؤوسـهم دون مقاطعـة، ولـو كانـت الكلمـات غيـر مرتبـة أو الألفـاظ غيـر الألفاظ.

في المشـهد الآخر: دعونا نتابع شـخصًا يتلو القرآن الكريم غيبًا أمام حشد أو في صلاة، فماذا نلاحظ لو أخطأ ولو بكلمة واحدة؟.. سـنجد طفلًا أو طفلة أو شـابًّا أو شـيخًا أو حتى شـخصًا أعمى من الحضـور يقاطع ذلـك القارئ الذي يتلـو القرآن الكريـم، ليصحح لـه قراءتـه حتـى ولو أسـقط حرفًا واحـدًا.. بل يقاطعـه ويصحح له حتـى لـو أخطأ في الضمة أو الفتحة أو الكسـرة.. مـاذا يعني هذا؟

إنـه يعنـي شـيئًا واحـدًا: أن ألفـاظ القـرآن الكريـم وحروفـه وحـركات حروفـه محفوظـة بشـكل إعجـازي مذهـل.

ولعلـي هنـا أذكر قصـة طريفة جـرت ليهودي مثقف مـع القرآن الكريـم فـي العصر العباسـي، فقد دخـل يهودي وسـيم وأنيق على

الخليفة المأمون قبل أن يتولى الخلافة، ولما جلس، وتحدث أُعجب المأمون بحديثه، فعرض عليه الإسلام، ووعده بعطاء جزل إن أسلم، ولكن اليهودي رفض أن يتخلى عن دينه من أجل المال؛ لذا اعتذر بأدب، وقال للمأمون: «ديني ودين آبائي، فلا تكشفني» فتركه المأمون.

فلما كان بعد مدة جاء اليهودي، وقد اعتنق الإسلام، «فلما تقوض المجلس دعاه المأمون، فقال: ألست صاحبنا؟ قال: نعم. قال: أي شيء دعاك إلى الإسلام، وقد كنت عرضته عليك فأبيت؟

قال: إني أحسن الخط، فمضيت، فكتبت ثلاث نسخ من التوراة، فزدت فيها، ونقصت، وأدخلتها الكنيسة، فبعتها، فاشتُريت، وكتبت ثلاث نسخ من الإنجيل، فزدت فيها، ونقصت، فأدخلتها إلى البيعة، فاشتُريت مني.

قال: وعمدت إلى القرآن الكريم، فكتبت ثلاث نسخ، فزدت فيها، ونقصت، وأدخلتها إلى الوراقين، فكلما تصفحوها قرؤوا الزيادة والنقصان رموا بها، فعلمت أن هذا الكتاب محفوظ، فكان سبب إسلامي.

قال يحيى بن أكثم: فحججت، فرأيت سفيان بن عيينة، فحدثته بهذا الحديث، فقال لي: مصداق هذا في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ. قلتُ: في أي موضع؟

قال: في قوله عَزَّوَجَلَّ في التوراة والإنجيل: ﴿بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ﴾ [المائدة:٤٤] فجعل حفظه إليهم، فضاع.

وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾»[1] [الحجر:٩].

وبعد، فإن زعم الكاتب أركون أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ «كان يتكلم بصفته مبعوثًا من قِبل الله، ومحملًا بمهمة عاجلة، ونتج عن ذلك القرآن».. هذا الزعم معناه أن النبي محمدًا صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قد تلقى خطوطًا عريضة، ومعاني عامة، ثم اجتهد من تلقاء نفسه، وانتقى من عنده كلمات وعبارات لصياغتها والتعبير عنها، وكأنه شخص حدثت له تجربة مثيرة، فأحب التعبير عنها بأسلوبه..

هذا الخلط الأركوني لا يدل على جهل أركون بالقرآن الكريم فقط، بل يدل على دجله، وإلا فأين الأمانة العلمية في نقل تعريف القرآن الكريم؟ أليس يدعي قراءة كل ما كتب قبله؟ ألا يعلم أن هناك تخصصًا اسمه (علوم القرآن) وكتبه منتشرة، وليست سرية ككتب النصيريين والإسماعيلية والدروز التي يمتدحها بطريقة تثير الشك في سلامة عقله؛ لأنه يمتدحها دون أن يقرأها أو حتى يراها، بل لا يعرف أحدًا رآها أو قرأها.. أليس ذلك من الجنون؟

أجل.. لقد بلغ حقد (أركون) على القرآن الكريم درجة يمجد فيها كتب تلك الطوائف النصيرية والإسماعيلية والدرزية دون أن

(١) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم: ١٠-٥١.

يقرأهـا، أو يعلـم ما بهـا، أو حتى يراهـا ولو من خلف زجـاج.. إنه يقـول: «يفيدنـا فـي ذلك أيضًا سـبر المكتبـات الخاصـة عند دروز سـوريا، أو إسـماعيلية الهند، أو زيديـة اليمن، أو علويـة المغرب، يوجد هنـاك في تلك المكتبـات القصية وثائق نائمـة متمنعة، مقفل عليها بالرتاج».

ثـم يبالغ في الثناء علـى كهنتها، فيعطيهم صـك العصمة وأعلى درجـات التوثيـق وكأنـه كبيـر كهنتهـم، فيقـول: «الشـيء الوحيـد الـذي يعزينا في عدم إمكانيـة الوصول إليها الآن، هـو معرفتنا بأنها محروسـة جيدًا»[1].

هكـذا يطلـق الكاتب (أركـون) التبجيـل لكتب تراثية ومقدسـة لا يعرف حتى عناوينها، ولا طرق تداولها وحفظها، بل ويبجل أناسًا لا يعرفهم، وكأنه حكواتي يحكي قصصًا من قصص ألف ليلة وليلة.

أيـن العقل في هـذه الثرثرة؟ هل هـذه عقلية ناقـدأو مفكر؟ هل هذه عقلية مثقف يحترم عقول قرائه، ويحترم نفسـه قبل ذلك؟ ترى لو أن مفكرًا مسـلمًا بجّـل، وامتدح كتابًا تراثيًّـا لم يقرأه، ولا يعرف مـن قـرأه، ولا يعرف عنوانه ولا اسـم مؤلفه، ولا محتـواه، فكم هو حجـم السـخرية التي سـيتعرض لهـا من أركـون وأضرابـه، وأولها تهـم الانتماء للفكر الغيبـي والثقافة الوثوقيـة الماضوية التبجيلية؟

(١) تاريخية الفكر العربي الإسلامي: ص٢٩١.

أليس الثناء على تلك الكتب الطائفية من أسوأ أنماط العقليات الغيبية الوثوقية التي يسخر منها أركون وأضرابه، فما بالهم يمارسونه لمجرد أنه ضد الإسلام؟

إذًا، فالتعريف الذي اختلقه أركون (للقرآن الكريم) لا يعرفه أحد سواه، وبناءً عليه، فكل نقد يقدمه أركون للقرآن الكريم هو نقد لقرآن آخر في مخيلته.. قرآن افتراضي لا يعرفه المسلمون.. لا يعرفه سواه، بل إن تعريفه للحديث لا يقل سوءًا ودجلًا.

تعريف أركون للحديث

يقول (أركون) الذي يدعي صنع المصطلحات في تعريفه للحديث النبوي:

«وأما في الحالة الثانية فتكلم النبي بصفته الشخصية كقائد ملهم، مما أنتج ما سمي بالحديث النبوي الذي ينطوي على تعاليم النبي» بل إنه يؤكد أن هذا هو التعريف للحديث النبوي عند السنة وعند الشيعة أيضًا.

وإنني لأتعجب من عدم خجل هذا الكاتب من قرائه، وهو يكذب عليهم صراحة، فهذا التعريف الذي قدمه.. لا يصدر إلا عن جاهل، أو متعالم؛ لأنه: لا السنة يقولون بهذا التعريف، ولا حتى الشيعة يقولون به..

(أركون) فقط هو من يقوله...

هـذا التعريـف هـو أحـد الأدلة التـي تثبـت ما قلته عـن أركون: وهـو أنـه يختـرع كذبة كبيـرة صادمة لم يسـبق إليها، ثم يبنـي عليها نتائـج تهـدف إلى التشـكيك في القـرآن الكريـم والسـنة المطهرة، فهـذا التعريـف العجيب الصـادم مخالـف تمامًا لمفهـوم الحديث النبـوي مـن حيـث الآليـة، بـل ومـن حيـث المعنـى، فـكلام النبي ﷺ بصفتـه الشـخصية كقائـد ملهـم لا يعتبـر حديثًـا عنـد المسـلمين، ولا عند النبـي نفسـه.. إن كلام النبي ﷺ بصفته الشـخصية.. هـو اجتهـاد بشـري شـخصي لا علاقة لـه للوحي.

ومـن الأمثلـة علـى ذلـك ما حـدث ذات يـوم حين سـمع النبي ﷺ أصواتًـا، فسـأل عنهـا «فقـال: **ما هـذا؟** قالـوا: يلقحـون النخـل، فقـال: **لـو تركوه**، فلـم يلقحـوه لصلح.

فتركـوه، فلم يلقحوه، فخرج شـيصًا؛ (أي إن تمرهم خرج سـيئًا فـي وقت نضـوج التمـر)، فقـال النبـي ﷺ: **ما لكـم؟** قالوا: تركوه لمـا قلت».

هنـا قـدم النبي ﷺ مفهـوم الحديث النبوي الذي ينسـف دجل أركـون قائلًا:

«إذا كان شـيء مـن أمـر دنياكم فأنتم أعلـم به، فـإذا كان من أمر دينكـم فإلي»[1].

(١) رواه مسلم: رقم ٢٣٦٣ وأحمد: رقم ١٢٥٤٤ واللفظ له.

وذات يـوم جاء زعيم قبيلة اسـمه الحارث يهدد النبي ﷺ ويطالبه بنصف إنتاج دولته من التمر، وإلا فإنه سـيغزو دولة القرآن، فجرى بينهما حوار كشف نطاق الاجتهاد البشري للنبي ﷺ، الـذي كان هـو وأصحابـه يعزلونه عـن الوحـي. قال الحـارث: «يا محمـد، ناصفنا تمر المدينة، وإلا ملأناهـا عليك خيلًا ورجالًا.

فقـال النبـي ﷺ: **حتى أسـتأمر السـعود**: سـعد بن عبادة، وسـعد بن معاذ يشـاورهما».

أي حتى يشاورهما؛ لأنهما أميرا المدينة التي احتضنته، وبايعته، فلمـا حضـرا قـال لهما: «إنـي قد علمـت أن العرب قـد رمتكم عن قوس واحدة، وأن الحارث يسـألكم أن تشـاطروه تمر المدينة، فإن أردتـم أن تدفعوا إليـه عامكم هذا حتى تنظروا فـي أمركم بعد..؟».

عندها جاء رد سعد وسعد؛ ليكشف أنواع حديث النبي ﷺ عند الصحابة.

قالا: «يا رسول الله، أوحي من السماء؟ فالتسليم لأمر الله.

أو عن رأيك أو هواك؟ فرأينا تبع لهواك ورأيك.

فـإن كنت إنمـا تريد الإبقاء علينـا، فوالله لقد رأيتنـا وإياهم على سـواء، ما ينالون منّـا تمرة إلا بِشِـرى أو قرى»[1] فقـالا:[2] ما أعطينا

(١) أي كانوا لا يستطيعون الحصول على تمرنا إلا بالشراء أو الضيافة.

(٢) قال السعدان: ابن عبادة وابن معاذ.

الدنيـة[1] من أنفسـنا في الجاهلية، فكيف وقد جاء الله بالإسـلام»[2]، فتراجـع النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عـن رأيه لرأيهما.

النصـان السـابقان ينسـفان تعريـف أركـون للحديـث النبـوي، ويكشـفان جهله بالتراث الإسـلامي الـذي يدعي قراءتـه لأكثر من نصـف قـرن، بـل يدعـي قـراءة كل ما كتـب حولـه باللغـة العربية، واللغـات الغربية كما سـماها، ولأن حبل الكـذب قصير وضعيف، فقـد انقطع به حيـن جزم بأن تعريفـه للحديث النبوي هـو التعريف الرسـمي عنـد السـنة والشـيعة قائـلًا: «حسـب الروايـة الرسـمية، المعتـرف بهـا، مـن قِبـل الجميـع السـنة كمـا الشـيعة» إنـه يقـول: حسـب الرواية الرسـمية!؟

هـذا الجـزم المضحـك يـدل على جهـل مركـب، بـل يثبت أن الرجـل لا يعرف شـيئًا عن تـراث الشـيعة وأحاديثهـم، فالأحاديث عنـد الشـيعة ليسـت عـن النبـي محمـد صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بـل ليـس لـدى الشـيعة أحاديث عن النبـي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ إلا نادرًا جـدًّا.. أركون يقول ذلـك وهـو الـذي ادعـى أنـه مشـغول بقـراءة كل ما أُلف عـن تلك الكتب المقدسـة باللغـات الغربيـة والعربية، وأنه بعـد أن يفحصها سـيتصدى لمهمـة وضـع المصطلحـات النقديـة لهـا! تأملـوا هذه العبـارة المنتفخـة: «مهمـة وضـع المصطلحـات النقديـة لهـا»،

(١) أي لم نعطَ الصفة والخصلة المذمومة في الجاهلية، فكيف وقد أسلمنا.

(٢) سنده حسن رواه البزار زوائد ٢-٣٣١ واللفظ له، والزوائد للطبراني ٦-٣٤ وتخريجه موجود في كتابي (السيرة النبوية كما جاءت في الأحاديث الصحيحة).

والنتيجة: لا شيء.. لا هو الذي درس التوراة، ولا هو الذي درس الإنجيل، ولكنه بجّلهما، ولا هو الذي درس القرآن الكريم والأحاديث، بل شكك فيها، ومن عجائب أركون وأضرابه.. أن تخصص معظمهم في الأدب، ومع ذلك لا يبالون بأمر بالغ الأهمية، وهو: اللغة، وبالتحديد: لغات التوراة والأناجيل.

ففي الوقت الذي يتخيلون وجود أخطاء نحوية في القرآن الكريم الذي أسس النحو على لغته.. نجدهم يضربون بالنحو واللغة عرض الحائط إن كان الحديث يتعلق بالكتاب المقدس توراة وإنجيل.. إنهم لا يأبهون بالتحولات الخطيرة التي طرأت عليهما بسبب الترجمات الكثيرة لهما، بل يكيلون المديح لهما في ظاهرة محيرة.. حتى إنهم لا يطرحون أخطر سؤال يتعلق بهما، وهو:

أين ذهبت لغة الكتاب المقدس الأصلية؟

يقال: إن التوراة قد نزلت على موسى باللغة العبرية، فهل سأل العلمانيون العرب يومًا: أين ذلك النص العبري الأول؟ هل ضاع؟ فالتوراة المتداولة اليوم بكل اللغات، وهي نتاج سلسلة لا تنتهي من الترجمات عن ترجمات عن ترجمات.. خاصة بعد التدميرات التي مرت بها التوراة، حتى قيل: إن التوراة الحالية تعود إلى عام (٨٩٥ م)، أي بعد أكثر من (٢٠٠٠) عام على نزولها، وحتى ندرك خطورة هذه الفرضية.. دعونا نتخيل أن القرآن الكريم الذي بين

أيدينا اليوم لم يُكتب بالعربية إلا هذه السنة، وأنه تُرجم عن نص باللغة الإنجليزية، وهذا النص مترجم عن نص بلغة فرنسية مجهولة المصدر، والنص الفرنسي مترجم عن نص بلغة يونانية مجهولة المصدر، وهذه الترجمة مترجمة عن نص عربي لا يُدرى من كتبه... لو كان هذا ما حدث، فكيف سيكون الفارق بين النص الأصلي، وبين النص العربي الذي حصلنا عليه هذا العام بعد تلك السلسلة من التحولات والتراجم المجهولة؟

هل سيتطابق النصان العربيان الأول والأخير لو كان هذا ما حدث؟ هذا مستحيل.

ألم يرَ أركون أنه لا وجود للتوراة الحقيقية على الإطلاق بعد ترجمتها؟ لقد ضاعت بوصفها لغة.. اختفت بوصفها وثيقة لغوية، فالترجمة لا يمكن قبولها بوصفها وثيقة، فكيف يقول عنها: إنها صحيحة وموثوقة؟ ألا يفقه هذا الرجل أن الترجمة نوع من أنواع التفسير.. أي إنها نص رديف.

أما الأخطر هنا، فهو أن الترجمة قد تقلب النص رأسًا على عقب؛ لأنها ستخضع لمذهب المترجم وعواطفه ومواقفه، وإن هناك مسألة مؤثرة.. هي: ثقافة المترجم، ومدى إلمامه باللغتين وتمكنه منهما؟

هناك أيضًا إشكالية أخطر، وهي هوية المترجم الدينية وموقفه من التوراة نفسها، وإلى أي مذهب ينتمي، وتأثير مذهبه في صياغة

ترجمته، فالترجمة عمل علمي، لكنه عمل أخلاقي بالدرجة الأولى، ويحتاج إلى علماء يتحلون بالأمانة العلمية للقيام بها، ويحتاج إلى جهات رقابية علمية تراجعه بكل نزاهة وحياد وموضوعية، وإلا فقد يتحول النص المترجم إلى نص مضاد للنص الأصلي..

هذا هو المعروف داخل الدوائر العلمية التي تحترم نفسها، وتحترم التراث، وتحترم القراء، وأما عند منتقدي الحديث، فالترجمة أمر يخضع للمزاج والهوى؛ لأنه ينظر لها بعقلية لا تليق إلا بالعابثين، وهذا هو الدليل:

الترجمة عند منتقدي الحديث مزاجية

ها هو الكاتب الحداثي اللبناني الشيعي (علي حرب).. يتبرع بالدفاع عن لغات (الكتاب المقدس التوراة والإنجيل) وترجماته الكثيرة والمجهولة بمزاجية عجيبة، حيث يقول في كتابه (نقد النص): «يفقد القرآن فرادته وإعجازه إذا ما ترجم إلى لغة أخرى، ويتحول إلى مجرد تفسير بين التفاسير الكثيرة، بينما يمكن ان تقرأ الكتب المقدسة الأخرى في أية لغة كانت دون أن يفقدها ذلك خصوصيتها وفرادتها»[1].

هذا الكاتب لا يخجل من تناقضه في سطر؟ إنه يقرر أن ترجمة القرآن الكريم تقوم بتحويل القرآن الكريم إلى تفسير من التفاسير..

(١) نقد النص: ص ٨٨.

أي إنه يتحول إلى نص آخر تتدخل فيه شخصية المترجم ورؤيته وفهمه وهواه في تشكيل الترجمة، وهذا صحيح، ولكنه في الوقت نفسه يقوم بمجاملة اليهود والنصارى، بل والمجوس والهندوس وكل ديانات الأرض، على حساب المسلمين والقرآن الكريم، بل إنه يربت على أكتاف اليهود والنصارى بعد فقدانهم لغة التوراة ولغة الإنجيل الأصليتين، فيقول: لا تحزنوا.. لا داعي للقلق، فكل شيء يمكن إصلاحه وترقيعه.. يمكنكم أن تقرأوا كتابكم المقدس بأية لغة شئتم، دون أن يفقد خصوصيته وفرادته.. إن كتابكم المقدس يصلح نفسه بنفسه بمجرد ترجمته.. كتابكم المقدس قادر على إصلاح عيوب الترجمة بنفسه، بل إنه يعمم هذا الهراء، فيقول: «الكتب المقدسة الأخرى»؛ أي حتى الكتب المقدسة للهندوس والنصيريين والمجوس وغيرهم.. كل هذه الكتب يمكن لأتباعها أن يقرؤوها بأية لغة.. مهما كانت ترجمتها، ومهما كان مترجمها مجهولًا، وغير أمين.. مثقفًا، أم ضحل الثقافة.. كل تلك الكتب في نظر الكاتب (علي حرب) محصنة، ولا تفقد خصوصيتها وفرادتها بالترجمة.. كل كتب الديانات الأخرى.. حتى كتب من يعبدون القرود والفئران مبرمجة على إصلاح أخطاء الترجمات بنفسها.. كل الكتب يمكن الاعتذار لها والدفاع عنها إلا القرآن الكريم.

هكذا يتشقلب منتقدو القرآن الكريم والحديث النبوي كالمهرجين، فيجعلون أكبر عيوب الكتب المقدسة ميزة وتفردًا..!

إنهم كالبابا تمامًا الذي جعل أكبر عيوب كتابه المقدس نقطة تفوق على القرآن الكريم!

يا ألله!.. هل هذه حداثة عربية أم ...؟

هل يمكن أن يكون هذا الكاتب مفكرًا؟ ما الفرق بينه وبين البابا (بينديكت)؟

(الترجمة تفسير).. أجل: تفسير.. شاء (علي حرب) أم لم يشأ، وهي تفسير خطير جدًّا، سواء كانت للقرآن الكريم، أم لغيره.. الترجمة تغير وتبدل فرادة النص وخصوصيته، بل تلغيها أحيانًا، ولكن الحداثي العربي يوزع تأثير الترجمات كالهبات والهدايا.

أما (محمد أركون) فأسوأ من (علي حرب)؛ لأنه أجبن من أن يتطرق لهذا الموضوع الخطير؛ لذا يتهرب من الحديث عن ترجمة أهم كتاب في أوروبا، وهو (الكتاب المقدس) الذي حوّل أوروبا الوثنية إلى مسيحية بحد السيف..

الكتاب المقدس الذي يرفض أركون نقده هو الكتاب الذي ألغى الفلسفة، وتسبب في مجازر صليبية، وشيد محاكم للتفتيش ضحاياها بمئات الملايين على مدى ألف عام.

(أركون) يتجاهل ترجمة (٢٠٠٠) صفحة من (الكتاب المقدس)، وكأنها مسألة ثانوية لا تستحق منه حتى الإشارة، وليته اكتفى بالتجاهل.. إنه يمارس الدجل، حين يجزم أن توراة اليوم صحيحة وموثوقة، مع أنها بعدة لغات وبعدة نسخ متناقضة، وهذا يعني أن تراجمها كلها صحيحة!!!

أمر محير يجعلني أتساءل: هل هؤلاء الكتاب يفكرون بعقولهم أم بجيوبهم؟!

أما الرد الصاعق على (أركون) وعلى (علي حرب)، وأدونيس وطرابيشي ويواكيم وبقية الدجالين، فلم يأتِ من المسلمين.. الرد المفحم جاء من الكنيسة نفسها.

الكنيسة ترد على الحداثيين العرب

الكنيسة تقول: كفى دجلًا يا (أركون) ويا (علي حرب)، فالترجمة تغير القداسة والفرادة والتميز.. بل تكون كفرًا وهرطقة وتجديفًا بحق الرب أحيانًا؛ ولذلك أعدمنا المترجم العظيم (وليم تندال) الذي قدم أهم ترجمة إنجليزية (للكتاب المقدس- التوراة والإنجيل).. أعدمناه بتهمة التحريف والتزوير.

وأما الأدهى والأمرّ فجاء أيضًا من الكنيسة نفسها، حين عادت بعد عشرات السنوات، فاعتمدت على ترجمة (تندال الكافر) أساسًا لكل الترجمات الإنجليزية، وأهمها النسخة الأشهر (نسخة الملك جيمس)، وهو أمر مكتوب اليوم على غلاف طبعة يسمونها الترجمة القياسية المراجعة!

فأي نقد للمقدس، وأي هراء ثقافي مارسه هؤلاء (المفكرون) العرب، خاصة (أركون)؟ بل أي كهنوت تورطوا فيه، حين سكتوا عن ضياع لغة النص الأصلي للكتاب المقدس، وسكتوا عن المطالبة بمعرفة وقت إعادة كتابته، والمسافة الزمانية التي

تفصلها عن نبي الله موسى عليه الصلوات والسلام، وسكتوا عن كارثة ترجمته وهوية المترجم، ولغته الأم، وديانته، وهدفه من الترجمة؟ كيف لا يطرحون أي أسئلة حول قدرة المترجم، ومدى تمكنه من اللغتين وأمانته العلمية؟ كيف يتجاهلون تعرض (الكتاب المقدس) للتدمير على امتداد تاريخه.. أحداثة هذه أم كهنوت؟!

أجل (أركون) لا يخجل من السكوت عما جرى للكتاب المقدس من ضياع وتدمير متعاقب، وترجمات مجهولة أتلفت ما تبقى من صدقيتها، ومع ذلك يجزم بأنها موثوقة.. ضاربًا عرض الحائط بكل الحقائق التي كشفها العلماني الأوروبي.

(أركون) يزور الحقائق، فيقول: «مهمة التحليل التاريخي لا تتركز في الكشف عن المؤثرات التي أتت من مصدر موثوق وصحيح وهو (التوراة)، وبالتالي إدانة الأخطاء والتشويهات والإلغاءات والإضافات التي يمكن أن توجد في النسخة القرآنية بالقياس إلى النسخة التوراتية»[1].. هذا هو الحداثي المسلم (محمد أركون) أستاذ المقلدين المساكين.. إنه أشد حربًا على القرآن الكريم من متعصبي الوثنية، وأشد دفاعًا عن التوراة من الحاخامات والقساوسة، وهو الذي يسخر من عقول قرائه بادعائه أن مشروعه هو (نقد التراث العربي المقدس)؟!

(١) الفكر الإسلامي، قراءة علمية: ص ١٣٠.

إذا كانت الحداثة العربية تسير على خطى الحداثة الأوروبية، فلا بد من طرح السؤال الآتي: هل قال حداثي أوروبي يومًا: إن (التوراة) كتاب موثوق وصحيح كما يقول أركون المسلم؟ هكذا تنكشف دراسات (أركون) الوهمية، ويتلاشى معها تطبيل الكتاب البسطاء والسذج، وتنكشف أكبر العقليات العربية التي تتصدى للبخاري، وتنتقده؛ لذا أوجه رجاء لهؤلاء العرب:

أرجوكم أن تنخرطوا حقًّا في الحداثة المبدعة، وأن تتخلوا عن هذه الانتفاخة والادعائية الفارغة.. إن كنتم حقًّا تحملون هم المستقبل لهذه الأمة، وإلا فإنكم ستظلون كما أنتم.. ظاهرة إنشائية تدعي كل شيء، ولكنها فارغة من كل شيء.

ليس المطلوب من (أركون المسلم)، بل ولا من (جورج طرابيشي، ويوسف الخال، ويواكيم مبارك المسيحيين، ولا من أدونيس النصيري وتلاميذهم الصغار).

ليس المطلوب من هؤلاء جميعًا أن يشتموا تراثهم، ولا أن يسخروا منه، ولا أن يسخروا من الحاخامات والقساوسة ولحاهم كما يفعلون مع أتباع القرآن الكريم...

المفترض فيهم بوصفهم مثقفين.. كمدعين للحداثة.. هو أن ينخرطوا في الممارسة النقدية الحقيقية للتراث العربي جميعًا، فالتوراة والإنجيل تراث عربي من جهة، ومن جهة أخرى هي تراث شرق أوسطي نزل في قلب الشرق الأوسط (سيناء)، وكم

أعجبني جواب الصحفية البريطانية (إيفون ريدلي) التي اعتنقت الإسلام، وهي ترد على أمها التي قالت لها ممازحة: «اسكتي أنت ودينك الشرق أوسطي».

فقالت (إيفون) لأمها: «ومن أين في رأيك خرج (يسوع)؟ هل تعتقدين أنه من مانشستر؟ إنه من الشرق الأوسط».

لذا، فالمفترض في هؤلاء الكتاب العرب أن يطرحوا أسئلتهم الخاصة، أو على الأقل أن يطرحوا الأسئلة التي طرحها الأوروبي على تراثه؛ لأنهم أقرب للكتاب المقدس من الأوروبي، ولأن (للكتاب المقدس) تأثيرًا في علاقاتهم وحياتهم الاجتماعية، ويكفي لمعرفة ذلك ترك مليون وثماني مئة ألف مسيحي قبطي (للمسيحية الأرثوذكسية) واعتناقهم للإسلام..

لم يحدث ذلك عند فتح مصر، ولا قبل ألف عام، بل خلال الأربعين عامًا المنصرمة، وما زال الأمر يحدث يوميًّا.. المحير هنا هو أن معظمهم تركوا دينهم بسبب أحكام الطلاق في (الكتاب المقدس)[1].

(١) صرح بذلك قس مصري، ورجل دين شهير.. اسمه الأنبا (ماكسيموس)، ومقابلته التي ذكر فيها هذا الكلام موجودة على موقع (يوتيوب)، حيث قال: «إن متوسط عدد النصارى الذين أسلموا في بلده خلال ٣٦ سنة من بداية تولي شنودة الثالث الباباوية مليون وثماني مئة ألف قبطي؛ أي بنسبة ٥٠ ألف كل سنة» وذلك في مقابلة على هذا الرابط: (http://www.youtube.com/watch?v=5zKZxmHH9yc).

الحداثة العربية ولدت ميتة؛ لأنها ولدت في اتجاه واحد هو محاربة القرآن الكريم والحديث النبوي، وعامًا بعد عام يكسب القرآن الكريم والسنة المطهرة أتباعًا جددًا من جميع القارات والديانات والطوائف الأخرى.. حيث يعتنق الإسلام الطالب، والمثقف، والعالم، والطبيب، والتاجر، والممثل والمغني، واللاعب، بل والمنصر.

أما المذهل في هذا الإسلام فهو أنه يخلب عقول جميع شرائح المجتمع.. حتى المختطفين والمأسورين باسم الإسلام ظلمًا يدخلون فيه، ولنا في (إيفون ريدلي) الإنجليزية المختطفة في أفغانستان، و(سيلفيا رومانو) المختطفة الإيطالية في كينيا، والمنصرة (صوفي بترونين) آخر رهينة فرنسية في مالي!

بينما في المقابل نجد كبار الحداثيين العرب كأركون وأدونيس يبثون حقدهم على الإسلام من فرنسا.. يحاولون تلقينها دروسًا في الإقصاء، بوقوفهم مع اليمين المتطرف وتأييده في استصدار قرار بطرد أي فتاة محجبة من مدرستها أو جامعتها، لدرجة أن أدونيس النصيري كتب سطرًا أسود يقطر حقدًا على الإسلام في كتابه (المحيط الأسود) يحرض فيه فرنسا على الإقصاء والتطرف، فيقول: «لا بد من أن يعرف المسلمون الذين يتمسكون بالحجاب، أن تمسكهم هذا يعني:

أنهم لا يحترمون مشاعر الناس الذين يعيشون معهم في وطن واحد، ولا يؤمنون بقيمهم، وأنهم ينتهكون أصول حياتهم،

ويسخرون من قوانينهم التي ناضلوا طويلًا من أجل إرسائها، ويرفضون المبادئ الديموقراطية الجمهورية في البلاد التي تحتضنهم، وتوفر لهم العمل والحرية. إن عليهم أن يدركوا أن مثل هذا التمسك يتخطى الانتهاك إلى نوع من السلوك يتيح لكثير من الغربيين أن يروا فيه شكلًا آخر من أشكال (الغزو)»[1].

كل هذه التهم والتحريض يحشرها هذا الطائفي ضد المسلمين في فرنسا، بل يلقنها السلطة الفرنسية من أجل منديل تضعه فتاة مسلمة على رأسها، فكيف ننتظر منه ومن أمثاله حداثة أو نهضة مبدعة؟.. إن انتظار ذلك منه، كانتظار الغابات للمطر من سحب دخان حرائق سوداء.

وأخيرًا أكرر ندائي لمنتقدي البخاري:

أرجوكم، ومن كل قلبي، أن ترتقوا إلى مستوى البخاري في نقدكم له.. ارتقوا ولو مرة واحدة.. تعلموا ذلك المنهج العبقري الذي قدمه الإسلام.. انتقدوا منهج البخاري عن وعي.. أثبتوا أنه قد فشل في ذلك إن كنتم مبدعين حقًّا، وإلا فإني أرجوكم رجاء آخر: تعلموا الحداثة من جديد، فأنتم لم تكونوا يومًا حداثيين.. تخلصوا من ثقافة التلقين، فالحداثة ليست كما لقنكم إياها يوسف الخال النصراني، الذي أمضى ربع قرن في ترجمة كتابه المقدس والترويج له، وليست كما لقنكم إياها الطائفي النصيري

(١) المحيط الأسود: ص ٩٢.

أدونيس الذي كتب المعلقات والمدائح في الدولة الدينية الثيوقراطية الإيرانية الفارسية الصفوية، حين طالبها باجتياح دول الخليج السنية، فالحداثة العربية الوحيدة التي لقنوكم إياها تلقينًا هي حداثة الإنشاء شعرًا ونثرًا.. صياغة لا أكثر.

أرجوكم.. اقرؤوا عن الحداثة عند مبدعيها الحقيقيين في الغرب.. إنها حداثة علمية تقنية صناعية اقتصادية... إلخ، وأخيرًا حداثة أدبية، وأما الحداثيون العرب فلا يعرفون سوى الحداثة الإنشائية الأدبية؛ لأنها لا تكلفهم أكثر من قلم وأكداس من الورق والسجائر والغل.. ينفثونها على البخاري والسنة، ولكنهم لم يشوشوا إلا على أنفسهم، ولم يحرقوا سوى صدورهم حتى تفحمت من الحقد.

محمد الصوياني